# الباب السابع

## الأدب الفارسى فى القرن التاسع عشر

---

# الفصل الأول

## عصر النهضة

بعد أن انتهى حكم الصفويين فى إيران قامت دولتا الأفشاريين والزَند وظلتا تحكمان زهاء سبعين عاماً . ولم يكن للأدب شأن يذكر فى عهد هاتين الدولتين . وفى أواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٦) استطاع محمد أغا القاچارى ، أول ملوك القاچاريين أن يلى عرش بلاده موحدةً ، فبدأت البلاد تستعيد مجدها الغابر ، وانتعشت الآداب والفنون . ولم يطل عهد محمد شاه أغا فى الحكم فقد مات بعد سنة تقريبا من تنصيبه ملكا ، ولو أنه ، فى الواقع ، كان الحاكم الحقيقى لإيران منذ وفاة كريم خان . وقد خلفه ابن أخيه (فَتْح على شاه) ، وقد سمى باسم جده الذى كان ينافس نادر شاه أيام الصفويين ، والذى رأى نادر أن يتخلص منه كى يخلو له الجو بعد القضاء على السلطان الصفوى الضعيف ، فقتله . وكان عهد (فَتْح على شاه) قلقاً ، فإن روسيا وتركيا طمعا فى بلاده بعد أن مات زعيم الدولة محمد أغا ، فاضطر (فَتْح على) إلى محاربتهما ، ولم يكن موفقا . فعقد الصلح معهما بمعاهدات خاسرة . وكان الإنجليز والفرنسيون يتطلعون إلى إيران ويتنافسون فى الحصول على « المركز الممتاز » بها ، فبعث كل منهما البعثات إلى البلاط ، تقربا وزلفى ، لعل الفرصة تواتى للتمكن والسيطرة . واكفهر الجو السياسى بعد مقتل رئيس البعثة الروسية وأعضائها ، فإن الشعب كان ساخطا على الروس أشد السخط ، فانتهز فرصة وجود البعثة فى بلاده فثار وقتل أفرادها واضطر الملك إلى الاعتذار . ولم يكد الملك يستريح من الحروب والكروب السياسية حتى فوجئ بموت ولده (عباس ميرزا) ، ساعده الأيمن فى الحرب ، والأمير الذى أدخل « المطبعة » فى إيران ورعا الشعراء ونشر المؤلفات . ولم يحتمل السلطان فجيعة ولده فمات بعده

بسنة واحدة تاركا العرش لحفيده محمد شاه بن عباس ميرزا الذى اضطر إلى الاستعانة بالإنجليز والروس ليقضى على منافسيه فى العرش ، عمه وأخيه . فهو مدين بعرشه إلى مجهود قائد انجليزى وجماعة من الروس . ولكنه مع ذلك لم يتهاون فى حقوق بلاده وحارب الإنجليز وقت حصار هراة ولو أنه اضطر إلى الصلح معهم . وقد تميز عهده بحادثين ، أولهما ثورة الإسماعيليين ، والثانى ظهور الباب ( ١٨٤٤ ) .

وخلفه ابنه ناصر الدين شاه ، أظهر ملوك القاجاريين ، و يمتاز عهده الطويل (١٨٤٨ — ١٨٩٦ ) بكثير من الظواهر الاجتماعية والسياسية والعلمية والأدبية . وكان السلطان نفسه شاعرا يجيد فهم الآداب ، وقد تعلم اللغة الفرنسية من طفولته فأجادها وقال بها الشعر ، وأحب أوربا حبا شديدا فرحل إليها ثلاث مرات . وكان شديد الثقة فى مستشاريه من أهل الغرب وكان لمشورتهم أثر كبير فى نهضة إيران . وقد اضطر فى بدء ولايته إلى مواجهة « البابية » وكان خطرهم قد تزايد وبدءوا يقاومون جند الدولة فى بعض الجهات كما بدأت دعوتهم فى الانتشار وحمل التعصب بعض البابية على محاولة قتل الشاه ففشلوا ؛ فأدى ذلك إلى جمع قوى الدولة للقضاء على هذا المذهب وأهله . و بعد أن استراح من البابية التفت إلى الإصلاح الداخلى وكان أبرز أعماله الإصلاحية إنشاء الجامعة فى إيران ( دار الفنون ) وجلب الأساتذة الأجانب للتعليم فيها ، و إيفاد صفوة الشباب الإيرانى إلى أوربا ، إلى فرنسا خاصة ، لتلقى سائر أنواع العلم فى جامعاتها . وكثرت فى عهده الصحف ، سواء ما ينشر منها فى إيران نفسها أو فى الخارج و يرسل سرا أو جهرا إلى إيران . وأدخل التلغراف فأدى إلى كثير من الإصلاح فى إدارة الدولة كما ساعد على إطلاع الناس على أخبار أمم العالم باستغلاله فى الصحافة . وكانت رحلات الشاه إلى أوربا ، يصحبه جماعة من أهل العلم والأدب ، من أسباب تعريف الغرب بايران ، كما أن الشاه نفسه ومن سافروا معه كانوا رسل المدنية الغربية إلى بلادهم . وقد أدى هذا الاتصال إلى إيقاظ الإيرانيين فبدأ شعورهم بالوعى القومى يظهر ، وأخذوا ينتقدون الشاه وحكومته فى طريقة الحكم الذى لا يقوم على الشورى ، كما بدأوا يظهرون التذمر من هذه الامتيازات التى تمنح للشركات الأجنبية لاستغلال منابع الثروة فى إيران مع عدم المبالاة بصالح الشعب الإيرانى نفسه . وكان للصحافة والجامعة أبعد الأثر فى تنوير الأذهان لهذه الأفكار الجديدة .

أما الصحافة فقد ظهرت بعد إدخال « المطبعة » إلى إيران ، وقد دخلت أول مرة أيام (فتح على شاه) ، فقد أوفد ابنه عباس ميرزا بعض الفرس إلى روسيا ، سنة ١٨٢٤ ، كى يتعلموا فن الطباعة وليحضروا من آلاتها ما تفتتح به المطبعة فى بلاده . وكانت أول مطبعة فى تبريز التى اشتهرت باسم « باصمه خانه » أى دار الطباعة . ولم تلبث المطبعة أن انتقلت إلى طهران حيث رعاها معتمد الدولة ميرزا عبد الوهاب الذى قام بنشر مجموعة من الكتب اشتهرت باسم « مطبوعات معتمد الدولة » . ومن ثم انتشرت المطبعة فى كثير من مدن إيران مثل شيراز و إصفهان .

و إذا كان القرآن الكريم قد حظى بالأسبقية فى الطبع المتقن ، فإن الكتب الأخرى ، وخاصة كتب التاريخ لقيت من العناية الشىء الكثير . وكذلك بدأت التراجم من اللغات الأجنبية إلى اللغة الإيرانية ، ومن أقدم ما طبع منها تاريخ بطرس الأكبر ، وشارل الثانى ملك السويد ، والإسكندر الأكبر ، وقد أمر بترجمتها ونشرها عباس ميرزا . كذلك طبعت كتب أدبية لسعدى والفردوسى وناصر خسرو وأورى وغيرهم .

وبجانب هذه الكتب الأدبية ظهرت مؤلفات سياسية كان لها أبلغ الأثر فى توجيه الناس نحو الاستقلال الحقيقى الذى تبدو فيه حرية الفرد مكفولة لا تخضع لغير سلطان الحق ، منها كتاب « يك كلمه » أى كلمة واحدة تناول فيه مؤلفه يوسف التبريزى حقوق الإنسان وقارنها بما جاء فى القرآن والحديث والقانون الرومانى .

ومنها « آزادى چه چيزاست » (ما هى الحرية) لطالبيوف .

ولكى يستعين المثقفون باللغة الفرنسية ويتزودوا بما كتب بها ظهر القاموس الفرنسى والمحادثة الفرنسية الإيرانية ، والأفعال الفرنسية باللغة الإيرانية .

* * *

وقد أدت هذه الحركة الثقافية التى نتجت عن « المطبعة » إلى التطور الفكرى والتنبه إلى الإفادة من الغرب وحضارته فبدأت الحكومة تفكر فى إصدار « الجريدة » التى أخذت ترقى وفق ارتقاء الأفكار . وكذلك بدأ الأهالى ينشئون لأنفسهم جريدة على نمط الجريدة الحكومية ومن ثم بدأت الجرائد تكثر وتنتشر .

ولم تكن فكرة « الجريدة » مألوفة فى إيران قبل عهد ناصر الدين شاه ، إنما شاع فيها وريقات صغيرة يتداولها رجال الدولة الرسميون ويكتبها « وقائع نگار » . وفى السنة التالية من ولاية ناصر الدين شاه (١٨٤٩) ظهرت الجرائد فى إيران بأمر و إشراف « أمير النظام » . ثم بدأ الأهالى والحكام ينشرون جرائد خاصة بهم .

وحينما أنشئت دار الفنون — الجامعة — بدأت الدوريات العلمية فى الظهور ، فنشرت الجامعة « روزنامة علمية دولت علية إيران » وهى خاصة بأبحاث أساتذة الجامعة ، كما ظهرت المجلة العلمية « روزنامة علمى » سنة ١٨٧٦ .

على أن السير السريع نحو التمدن لم يكن يلقى روحا سمحا من الحكومة فقد كانت النظم القديمة التى سارت عليها الحكومات المتوالية فى إيران تخاف من انتشار الآراء الحرة عن طريق الصحافة ، ولم تنح الحرية بعض الشىء إلا فى أواخر عهد ناصر الدين شاه حين كان الشعور القومى يفيض بمعانى الحرية والحق والمساواة ، وكانت أصداء هذه الأفكار الجديدة تتجاوب فى الشرق الإسلامى كله ، وخاصة فى تركيا و إيران ومصر . واضطر كثير من الفرس الأحرار إلى الهرب من بلادهم حيث لم تكن حرية القول مكفولة ، وأقاموا فى أوربا أو تركيا أو مصر أو الهند وهناك أصدروا الجرائد بلغتهم الإيرانية وسطروا بها كل ما تجيش به صدورهم ، وما تطمح إليه نفوسهم من الحرية والأمانى نحو وطنهم وأهله . وقد تحمل أصحاب هذه المجلات من الأزمات والإرهاق ما يتحمله الأحرار فى سبيل الواجب الذى لا يعدله شىء من ناعم العيش وترف الحياة ، مثلهم فى ذلك مثل سائر الأحرار فى مصر وتركيا حينذاك . وكان دخول بعض هذه المجلات إلى إيران محرما ، إنما كانت ترسل خفية إلى الناس .

وقد أصدر ميرزا مَلْكُم خان ( نظام الدولة ) مجلة فى لندن اسمها « قانون » سنة ١٨٩٠ كان يحررها بالفارسية بنفسه فى أسلوب سهل يحبب القراءة إلى من يطلع عليها ، وقد بث فيها أفكاره الإصلاحية فلاقت نجاحا كبيرا فى إيران . وبفضل هذه المجلة دخلت اللغة الفارسية عدة مصطلحات جديدة مثل القانون بالمعنى الحديث والتنظيمات وأصول الإدارة وغيرها . وقد ترددت هذه الألفاظ كثيرا فى كتابات الناس وعلى ألسنتهم كما تأثرت أفكارهم

بما تنطوى عليه من المعانى . وكانت هـذه المجلة لسهولة أسلوبها أروج المجلات الإيرانية وأقوى الجرائد على بعث اليقظة فى إيران فى القرن التاسع عشر فقد أحيت فى نفوس الناس من الأفـكار السياسية ما لم يكن من اليسير بثه بينهم فى إيران نفسها كما كان لها أثر أدبى إذ أخذ الـكتاب يقلدون أسلوبها السهل الذى لا عوج فيه .

وفى الوقت الذى بدأت المطبعة تخرج الآثار الأدبية والعلميـة المختلفة ظهرت أيضا الجامعة ( دار الفنون ) فقد أنشأها ناصر الدين شاه سنة ١٨٥١ فى طهران ، وكانت تلقى بها دروس بالفارسية واللغات الأجنبية المختلفة ، يلقيها جماعة من علماء الفرس وفيف من لأساتذة الأجانب ، يعلمون الشبان الإيرانيين الطب قديمه وحديثـه والرياضة والتاريخ والجغرافية وغيرها من فروع العلم[1] .

(١) يقول Browne فى كتابه A Year Amongst the Persians (ص ١٠٣ — ١٠٤) إن دار الفنون تقع فى ميدان « شمس العمارة » وإن التلاميذ يتفاوت عمرهم من أولاد صغار إلى شبان فى الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، يمتازون بزى يشـبه اللباس العسكرى . وهم لا يتلقون التعليم مجانا فحسب بل يتناولون وجبة من الطعام كل يوم وبدلتين كل عام على نفقة الدولة . وذلك عدا المـكافآت التى ينالها المتفوقون فى الأخلاق والعلم فى نهاية العام . ولم يكن تعليم اللغة العربية وعلوم الدين والميتافيزيقا ضمن المناهج الجامعية بل درست هذه المواد فى المدارس القديمة التى كانت تلحق بالمساجد ويصرف عليها من الهبات ، وكان أحسن هذه المدارس فى إصفهان لا فى طهران .

# الفصل الثانى

## الحياة الأدبية

يقول شبلى فى كتابه شعر العجم (ج ٣ ص ١٨٩) إن الشعر الإيرانى الذى بدأ برودكى قد انتهى بشعر صائب وإن قاآنى ، أعظم شعراء القرن التاسع عشر ، ومعاصريه لم يفعلوا شيئاً غير تقليد الشعراء المتقدمين وخاصة فَرّوخى ومنوچهرى . ويرى رضا قولى خان أن الشعر الإيرانى لبث زمنا طويلا فى حالة تدهور وأنه بلغ الغاية فى هذا التدهور قبيل قيام الدولة القاچارية . وأن الشعراء القاچاريين ، وخاصة الأول منهم ، قد قلدوا الشعراء الفرس العظام ممن ظهروا قبل سقوط الخلافة العباسية ؛ فظهرت أشعار قلد فيها شعر خاقانى وفروخى ومنوچهرى والفردوسى وسعدى ونظامى وناصر خسرو وغيرهم . أما عن الشعراء المتأخرين ، أى بعد سقوط بغداد ، فلم يقلدوهم . لأنهم لم يعجبوا بأشعارهم ، مثل جامى وعرفى وصائب ، كذلك لم يقلدوا « حافظ » وإن قدروه كل التقدير وأعجبوا به كل الإعجاب وحفظوا شعره وتمثلوا به لأن له طريقة خاصة فى الشعر عزت على التقليد .

والواقع أن تقليد الشعراء العظام لم يكن بدعا ، فإن الإيرانيين بوجه عام يحبون شعراءهم ، يحفظون جيد شعرهم ويرتلون مختاراته ، ويكثر الشعراء منهم بوجه خاص من حفظ الشعر وتلاوة الرائع منه .

وقد نصح نظامى عروضى وهو من أوائل من كتبوا باللغة الإيرانية عن فن الشعر ، نصح من يطمح فى أن يكون شاعراً بأن يحفظ فى صباه عشرين ألف بيت من أشعار المتقدمين وأن يذكر عشرة آلاف كلمة من آثار المتأخرين وأن يداوم على قراءة دواوين عظماء الشعراء وإنما يتوفر لهذا الطموح أدواته حين تستقر الحكومة فى الدولة ويطمئن الناس إلى حياتهم ومعاشهم ويرون فى القائمين بأمرهم من يشجع أهل الفن والعلم فيزدهر الأدب وتحيا العلوم ويظهر الشعراء ويقبلون على استذكار جيد الشعر مما قال المتقدمون كى تنمو ملكتهم ويصلوا إلى الدرجة التى يبتغون بلوغها ؛ كما يظهر العلماء ويتنافسون شتى

فنون العلم بالبحث والتأليف والنشر . وهكذا كان الحال أيام القاجاريين ، فقد استقرت أمور إيران بعد اضطراب دام أكثر من سبعين عاما ، وولى الأمر جماعة من الأمراء أحبوا الشعر وكان بعضهم ينظمه ، فشجعوا الشعراء وقربوهم ووليهم بعض الوظائف الهامة وخلعوا عليهم من ألقاب الإمارة والملك ما حبّب إليهم الطموح لبلوغ الغاية فيه . وليس عجبا أن يقلد هؤلاء الشعراء من تقدمهم من عظماء الناظمين فإن فنون الشعر لم تتغير عند قيام الدولة القاجارية فلم يكن بد من أن يكون الجديد ترديدا للقديم من حيث الموضوع .

ولكن الذى يلفت النظر ويدعو إلى التوقف قبل التسليم بقول سبلى ورضا تسليما مطلقاً ، هو أن عظماء الشعراء فى عهد القاجاريين كانوا يقلدون تقليداً مقصوداً واضحاً وأنهم نبغوا فى هذا التقليد وأبدعوا . لم يكن قصدهم من التقليد أن ينسجوا على منوال من يقلدون فحسب ، إنما قصدوا إلى إحياء الآثار الأدبية الرائعة التى انتقلت من إيران إلى الهند والتى لم يعبأ الأمراء المتعاقبون بإحيائها فى إيران حتى كانت الدولة القاجارية . وهم قلدوا الشعراء العظام وأبدعوا ، حتى فاقوهم فى بعض الأحيان . ( فصبا ) عندما ألف كتابه « شاهنشاهنامه » على نسق شاهنامة الفردوسى قصد إلى إحياء أدب الفردوسى قصداً ولكنه نبغ فى تقليده للفردوسى حتى كان الحديث ، فى نظر بعض النقاد ، خيراً من القديم . وقاآنى حين يقلد گلستان سعدى فيؤلف على نسقه كتابه « پريشان » — خواطر — يرى أنه وإن كان يقلد كتاب سعدى إلا أنه « لم يأخذ كلمة واحدة من سعدى أو غيره إنما كان الكتاب كله من صنعه وليست فيه عارية وأنه خاص به فكل ما فيه من قوله وحده » . وإذاً فتقليد الشعراء القاجاريين لم يكن عجزاً منهم عن التجديد ، إنما قصدوا إلى التقليد قصداً لأن أساس دراستهم هو الرجوع إلى استذكار القديم ولأن الفنون الشعرية لم تتغير ، ولكنهم لم يقتصروا على التقليد بل إن جديدهم فاق القديم عند بعض النقاد .

على أن الشعراء فى القرن التاسع عشر لم يقتصروا على التقليد فإن الحياة فى إيران قد تطورت ، وتفتحت للشعر والكتابة موضوعات جديدة واتسعت فنون الشعر فوسعت من المواضيع ماترتب على تطور البلاد نحو المدنية الغربية . لم تكن الحياة الإيرانية تعرف شيئاً عن أوربا وما فيها من نُظُم سياسية واجتماعية واقتصادية ، وما كان فيها من موضوعات الأدب ، شعراً ونثراً وقصصاً ، وما فيها من جامعات ومدارس . وقد عرف الإيرانيون كل

هذا فى القرن التاسع عشر ، فقد أخذت دول أوربا تتقرب من الملوك فى إيران ، فأوفدت البعثات المختلفة اليها ، وكثر استعانة الملوك بالمستشارين من أهل الغرب ، وتعلم كثير من الإيرانيين اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وكان ناصر الدين شاه نفسه يجيد الفرنسية ويقول بها الشعر كما قلنا . وظهرت « المطبعة » فنقلت إلى الناس كثيراً من الكتب فى التاريخ والأدب والفقه الإسلامى ونشرت بينهم القرآن ، ثم نقلت اليهم تراجم الكتب الأدبية فى أوربا وآذربيجان ، فقرءوا لفولتير Voltaire تواريخ بطرس الأكبر وشارل الثانى عشر ملك السويد والإسكندر ، وقرءوا لاسكندر دوما Alexandre Dumas الفرسان الثلاثة والكونت مونت كريستو والملكة مرجُت ولويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر ، وقرءوا لموليير Molière الطبيب بالقوة Le Médecin malgré lui والنفور Le Misanthrope والحمار L'Ane . وقرءوا تراجم لقصص كُتب فى آذربيجان باللهجة الآذرية ، سنذكر منه قصة الكيماوى فى القصص . كل هذا عدا ما ذاع بينهم من تراجم الكتب العلمية والتاريخية . وكثرت الرحلات إلى أوربا وقد ارتحل ناصر الدين شاه ثلاث مرات إليها وكان بصحبته جماعة من ذوى الرأى والشعراء والكتّاب . وأوفدت البعثات العلمية بكثرة ، وإلى فرنسا خاصة . أدى هذا كله إلى صبغ الحياة الإيرانية بصبغة خاصة جديدة ، وقد أخذ الناس يجمعون بين ما يستطيعون تطبيقه من الجديد الذى رأوه أو سمعوا به فى الخارج وبين القديم الذى لا يستطيعون إلى تبديله سبيلا ، وكذلك وجد الأدباء ، شعراء وكتاباً ، موضوعات جديدة للشعر والكتابة .

فحديث الشعراء عن الحرية ، وحق الشعب فى أن يشارك فى إدارة الدولة ، والمناداة بأن الناس سواسية قد خلقهم الله أحراراً لا سيد ولا مسود ، وبأن الأمر شورى بينهم ليس من حق رجل واحد أن ينفرد به ؛ هذا وأمثاله لم يكن يتاح لرجال الأدب أن يتحدثوا عنه فى العهود السابقة على القاجاريين ، فهو تجديد فى موضوع الشعر الإيرانى وليس تقليداً للمتقدمين من شعراء إيران .

والشاعر الذى يتحدث عن باريس وأنوارها ويعجبه مبدأ المساواة والإخاء بين الناس ويدخل الحوانيت فلا يرى غير السعر المحدد ، مثل هذا الشاعر مجدد وليس مقلداً ولو أن

تجديده لايعدو ذكر أوضاع أعجبته فى الغرب فنظمها لأناس يؤثرون الشعر على النثر .

وكذلك دخلت اللغة الإيرانية ألفاظ من اللغات الأجنبية ، الفرنسية خاصة ، وظلت مستعملة بها حتى الآن ؛ ولا شك أن هذه الألفاظ الأجنبية بمدلولاتها الجديدة قد أدخلت على الأدب الإيرانى لوناً جديداً . وظاهرة أخرى امتاز بها الشعر الإيرانى فى القرن التاسع عشر هى ظهور « الشعر الفِدَائى » عند البابية .

ومن هذا نرى أن القول بأن الشعر أيام القاجاريين كان قاصرا على تقليد فحول شعراء إيران قبل سقوط بغداد صحيح إلى حد ما ولكن القائلين بهذا الرأى لم يأبهوا بما جد على الشعر من التطور نتيجة لتطور الحياة فى إيران نفسها وما أستتبع هذا التطور من مظاهر التجديد .

وسأتحدث عن الشعر فالكتابة ثم القصص ، بادئا الحديث عن أشهر شعراء القرن التاسع ، وهو الشاعر قا آنى .

## الشـــعر

**قا آنى :**

وهو أشهر شعراء القرن التاسع عشر ومن أعظم شعراء إيران ، مثله كمثل حافظ وسعدى وفردوسى ، تجرى أشعاره على الألسن ويحفظ له كثير من الإيرانيين . مال منذ صباه إلى تحصيل العلم والأدب ونال منهما ما تمنى ، وكان أبوه ميرزا محمد على الملقب ( بكلبشن ) شاعرا أيضاً فورث الولد حب الشعر عن أبيه وأخذ ينظم ويجيد حتى بلغ القمة . قال فيه رضا قولى خان ، وكان معاصرا له « وقد أمضيت بصحبته سنوات وسمعت منه جيد الشعر والحق أنه شاعر فاضل وكاتب كامل » . التحق ميرزا حبيب بخدمة حاكم خراسان ، ميرزا حسن على شجاع السلطنة فغير هذا الحاكم اسمه وسماه باسم ولده ( أوكتاى قا آن ) فأصبح معروفا بقا آنى . وقد صحب هـذا الأمير زمنا فى خراسان وكرمان وهو الذى قدمه إلى ( فتح على شاه ) . وانتقل بعد ذلك إلى طهران حيث ذاع صيته واتصل ببلاط محمد شاه وناصر الدين شاه .

وقد سار هذا الشاعر على النهج الذى بدّيا فى التقليد ولكنه استطاع أن يصبغ شعره

بصبغة خاصة وقد أفاد من إجادته الفرنسية واطلاعه على آدابها ، وقد امتاز فى القصيد والغزل على السواء ، وكذلك فى المسمط والترجيع بند . وقد قال رضا زاده شفق فى كتابه تاريخ أدبيات إيران (ص ٣٨٦) « إن حلاوة العبارة فى شعره كثيرة والمعانى الفلسفية والحقيقية قليلة » .

وله ديوان كبير يبلغ سبعة عشر ألف بيت ، كما أن له كتاب « پريشان » — خواطر — نحا فيه منحى سعدى فى الگلستان .

وكان يبدأ أشعاره بالوصف الذى أجاده وأبدع فيه . ومن ذلك قوله فى الربيع ، مسمط:

ها هى سحابة الربيع قد عادت فملت الجبل ، وها هو السيل يجرف الصخر من عَلِ .

وها هى الطيور تهيج من كل فج ، فتسمع اليمام و « أبو الملبح » والصاصل والحجل والبلبل والببغاء والطاووس والبط والسُرخاب والزرزور

أهو البنفسج رسول أرديبهشت[1] ، إنه ينمو فى الحدائق أكثر من كل الزهور

وترى الجداول كالجنان من أريجه ، كأن ربك قد خط بالمسك على خده :

كن ياذا الشذى بشير الربيع

وعيون النرجس فى الحديقة وسنانة ، وعطرة السنبل فى الحديقة ملأتها التجاعيد

وكان الماء منجمدا كأنه الفضة ، فصار كالزئبق ، كأنه حين هب نسيم الربيع مُلِّئ الرعب فذاب .

وفجأة ولى فرارا فى منتصف الليل

* * *

وقد آنى كما قلت شاعر مقلد وهو عظيم فى تقليده ، تلد أنورى فى قصيدته المشهورة التى قال فيها :

إذا لم تكن شئون الدنيا موكولة إلى القضا

فكيف تجرى الأمور على غير ما نرضى .

فقال :

إذا كانت الدنيا بأيدى القدر

فلم نخضع لما به الشاه أمر .

---

(١) الربيع الثانى ، ٢١ أبريل — ٢١ مايو .

وهو يقلده أيضاً فى قصيدته التى مطلعها :

أحقيقة ما أرى أم حلم يار بى

إنى أرفل فى النعيم بعد طول عذابى .

فيقول :

أرى فى اليقظة ما لا يرى أحد فى المنام

فإنى فى وقت واحد مستريح مُعَنّى .

* * *

وهو يقلد منوچهرى فيقول على غراره :

الوقت طرب واليوم خمر والفصل ربيع ، والروح نشوى والقلب خالٍ والحبيب قريب ونسيم السَّحَر عبق ، إنه يخرج من مجمرة الورد المستعر ، وكأن أرض الحديقة مرآة ، لما يجرى فيها من ماء .

أرجع البصر تر كوكبة من السرو والسورى[1] ، وما سمعتَ ستنعم بنغم الصلصل والزرزور .

ماذا يشبه السورى ؟ إنه كبيضة من ماس ، بيضة ملئت من عود القُمار[2] .

* * *

وهو يقلد أيضا حين يتحدث عن الربيع حديث منوچهرى فيقول :

هلّ الربيع وصوت البلبل فى البستان يشجينا

وهذا الطير المولّه ، تغريده من المروج يجىء .

حتى لتقول من كثرة ما تسمع من تغريد التدرج والصلصل والدراج والزرزور

إنها أمسكت الأرغول ووقفت تغنى فوق أغصان وأوراق الزهور .

إن رائحة الزهر تتأرج من الحديقة فتحيى الروح

ويهفو القلب حين يصدح الطير فوق الغصن وينوح .

نغم العندليب وصوت الزرزور وتأوه القمرى

مرة من الورد وأخرى من السرو ومن الصنوبر حينا يجىء .

---

(١) ورد أبيض (٢) عود ذكى الرائحة .

obeikandi.com

وترى البعض يمسك الشقائق كأنها الأقداح
والبعض يهيم بالورد فمنه رائحة الحبيب تجىء .
يرى أحدهم المرج فيقول مَرْحَباً ، غير ملتفت ،
ويشم البعض السَّمَن[1] ويحار من صنع الذى خلق ،
يطأ أحدهم الشقائق فقد أخذت من الخمر اللون ،
ويرى آخر الورد فيأخذه الوجد ، بخٍ بخٍ ، منه رائحة الحبيب تجىء .
واحد يتمرغ على السندس ، وآخر يرقص على الشقائق ،
واحد يفقد انوعىَ ، والآخر إليه الصواب يجىء .
شاع فى كل ناحية نغم الأرغول والجنك والناى
وصدى البربط والطنبور والتار من كل فج يجىء .

* * *

واستمع إليه وقد أبصر الربيع فحار فى تصويره فقال :
فى الحق لا أحدٌ يدرى من أين نجمت
كل هذه النقوش والصور فى فصل الربيع ؟
إن العقول تحار كيف تنمو هذه الأزهار الجميلة
من هذه التربة القاتمة البوار ؟
مَنْ هذا المصور الماهر الذى أبدع هذه الصور
بغير علة أو آلة ولم يقلد فى صنعه أحدا ؟
كيف لا تسأل من أين ظهرت هذه التماثيل ؟
كيف لا تبحث من أين ظهرت هذه التصاوير ؟
مِنْ عشق مَن اصفر لون الخيرى[2] فى الحديقة ؟
والشقائق من حب مَن احترقت فى البستان ؟
ويمضى قائلا على هذا النحو واصفا خضرة الرياحين وحمرة الشقائق البرية ثم يقول :
والريح لا عنبر فيها ، كيف تفوح بالعنبر

(١) نوع من الزهر (٢) زهر أصفر

والسحاب لا جوهر فيه ، كيف ينثر الجوهر ...

* * *

وقد شارك قا آنى شعراء إيران فى بكائهم الحسين ، ولكنه يبكيه بطريقته الخاصة فيجعل رثاءه فى صورة أسئلة وأجوبة ، ويروى قصة الحسين ، وقد رأيت أن أنقلها لطرافة أسلوبها . يقول :

ماذا يهطل ؟ الدم ! من أين ؟ العين ! كيف ؟ ليل نهار ! لماذا ؟

من الغم . أى غم ؟ غم سلطان كربلاء .

ما اسمه ؟ حسين . من نسل من ؟ من علىّ .

من أمه ؟ فاطمة . من جده ؟ المصطفى .

كيف حدث ؟ استشهد . أين ؟ فى دشت مارية[1]

متى ؟ عاشر محرم . سرًّا ؟ كلا بل على الملأ .

أقتل ليلا ؟ لا نهارا . أى وقت ؟ وقت الظهر .

أقطعوا رأسه من عنقه ؟ كلا كلا ، من القفا .

أقتِل مرتويا ؟ كلا . ألم يعطه أحد الماء ؟ أعطاه .

من ؟ شِمر . من أى عين ؟ من عين الفناء .

أظُلم الشهيد ؟ بلى . أأجرم ! كلا .

ماذا كان يعمل ؟ الهداية . ومن حبيبه ؟ الله .

من الذى ظلمه ؟ يزيد . من يزيد هذا ؟

من أبناء هند . من أى زوج ؟ من نطفة الزنا .

أأقدم على هذه الفعلة بنفسه ؟ كلا ، بل أرسل كتابا

لمن ؟ إلى ابن مرجانة الذى لا يُعرف أبوه .

أكان ابن زياد ابن مرجانة ؟ نعم

ألم يرجع عن قولة يزيد ؟ لا

---

(١) صحراء مارية .

أقتل هذا اللعين الحسينَ بيده ؟

لا ، إنه سير الجيش نحو كربلاء .

من كان أمير الجيش ؟ عمر بن سعد

أمزق ابن فاطمة العزيز ؟ لا شمر الذى لا يستحى

ألم يستح الخنجر من قطع رقبته ؟

استحى . فلماذا قطع ؟ سبق القضاء بما قضى .

لماذا ؟ كى يكون شفيعا للناس ،

ماشرط شفاعته ؟ النوح والبكاء .

أقُتل معه أحد أبنائه ؟ بلى ولدان .

ومن الآخرون ؟ تسعة أخوه . ومن الآخرون ؟ الأقرباء

ألم يكن له ولد آخر ؟ نعم ؟ ومن هو ؟

السجَّاد . من هو ؟ هو الذى ابتلى بالغم والبلاء .

أبقى فى كربلاءِ أبيه ؟ لا بل ذهب للشام .

بالعز والوقار ؟ لا بالذل والعناء .

وحده ؟ لا مع سيدات الحرم ، وما أسماؤهن ؟

زينب وسكينة وفاطمة وكلثوم البائسة .

أمن كساء يستر جسده ؟ بلى ، غبار الطريق .

أمن عمامة على رأسه ؟ نعم عصى الأشقياء .

أكان مريضا ؟ بلى . فماذا كان الدواء ؟ دمع عينه .

بعد الدواء ماذا كان الغذاء ؟ دم قلبه

أكان له رفيق ؟ بلى الأطفال الذين فقدوا أباهم

ومن الآخرون ؟ الحمى التى لم تبارحه .

ماذا بقى هناك من زينة النساء ؟ شيئان .

طوق الظلم فى الرقاب وخلخال الغم فى الأرجل

أيقترف هذا الظالم كافر ؟ كلا . مجوسى أو يهودى ؟ كلا .
هندوسى ؟ كلا . عابد صنم ؟ كلا . يا ويلتاه من هذا الجفاء
أينظم قاآنى هذه الأشعار ؟ لى .
ما ذا يريد ؟ الرحمة . ممن ؟ من الحق . متى ؟ وقت الجزاء .

* * *

ولم يكن قاآنى بعيداً عما يجرى فى البلاد من خطوب ، فهو معاصر للبابية متأثر بها ، وقد أعجبته مبادئ الباب فى أول ظهوره ، وظن أن المهدى « المنتظر » قد ظهر ، وأن على الناس أن يتجهوا إليه ، وأن الدولة نفسها قد تميل إليه وتؤيده ، فقال قصيدة يمجد فيها المذهب الجديد بادئا بقوله :

إن قدوة الإنس والجن قد ظهر
و إمام هذا وذاك المنتظر .

ولكنه لم يلبث أن رأى الدولة جادة فى محاربة المذهب ، وأن الباب نفسه قتل ، فيعدل عن تأييد البابية . ورأى ثلاثة منهم قد اعتدوا على السلطان ناصر الدين فأسرع إلى قلعه يصف الحادث الشنيع وقد قال فى هذا :

لقد خرج كسرى آخر شوال يصطاد
السماء فى عنانه والشمس فى الركاب
ففجأه ثلاثة رجال من كمين
وصوبوا النار على كسرى مالك الرقاب .

وهو فى قصيدة أخرى يتغنى بهذا الحادث ويدعو الناس إلى أن يجعلوا منه عيداً كعيد الأضحى :

عيّدوا آخر شوال منذ اليوم
وادعوا خدم الملك من كل حىّ
نادوا الحبيب ودعوا الزاهد
ومروا الخازن ببذل العطاء

ألا أيها الساقى أدر الكؤوس
ألا أيها العازف أطرب
وخَلِّ أهل الغناء يغنون
سموه عيد قربان الملك
واذبحوا أعداءه ذبح الخراف
فى طريق الملك المظفر .

* * *

ولم يكن هذا التحول من بابىٍّ يمدح الباب ويشيد بمذهبه إلى عدوٍ للمذهب ينظم الشعر فى مدح قاتل الباب ، وعدو المذهب الذى أخرج رؤساءه من إيران وعذب أتباعه تعذيباً لم يكن هذا عجيباً من قاآنى ، فإن المعانى الأخلاقية كما قال رضا قولى ، لم تكن تظفر بعناية كبيرة من هذا الشاعر . وقد حدث أن كان يمدح الوزير حاجى ميرزا اقاسى الذى وزر لمحمد شاه بعد مقتل وزيره الكاتب الأديب القائمقام ( أبى القاسم ) والذى أقصى عن السلطة بعد ولاية ناصر الدين شاه . فحين أبعد هذا الوزير وولى مكانه ميرزا تقى خان ، قال قاآنى يمدح الوزير الجديد :

لقد ذهب الظالم الشقى ، وجاء العادل التقى ، الذى يفخر به المؤمنون الأتقياء .

* * *

ولقاآنى قصيدة مشهورة تصور الحديث بين شيخ وطفل ألكنين ، وقد رأيت أن أكتبها بنصها ليرى القارئ كيف استطاع الشاعر أن ينظم الحديث كما جرى بينهما :

پيركى لال سحرگاه بطفلى الكن
ميشنودم كه بدين نوع همى راند سخن
« ك اى ز زلفت صَ — صَ — صبحم شَ — شَ — شامِ تاريك ،
واى زچهرت ش — ش — شام صَ — صَ — صبح روشن !
تَ — تَ — تَرياقيم ، واز ش — ش — شهدِ لَ — لبت
صَ — صَ — صبر و تَ — تَ — تابم رَ — رَ — رفت ازت — ت — تن » .

طفل گفتا : « مَ — مَ — من را تو — تقليد مَ مكن !
كُ — كُ — كُم شو ز بَرَم ، اى ك — ك — كمتر از زن
م — مى خواهم مَ — مَ — مُشتى بـ — ك كلت ب — زنم
كه بيفتد مَ — مَ — مغزت م — ميانِ — د — دهان ؟ »
پير گفتا : « وَ — وَ — والله كه معلوم است اين
كه كه زا دم من بيچاره ز مادر الكن !
هَ — هَ — هفتاد وهشتاد وسى سال — است فزون
كُ — كُ — كُنك و ل — ل — لا اَ بَ — بـ — خلاّق زمن ! »
طفلى گفتا . « خَ — خدا را صَ — صَ — صد بارش — شكر ،
كه بـ — رستم بجهان از مَ — لَ — لال وم محن !
مَ — مَ — مَن هم ج — جَ گنگم م — م — مثلِ — ت — ت — تو :
تُ — تُ — تو هم جَ — جَ گنگى مَ — مَ — مثل — م — م — من ! » .

والقصيدة تمثل حديثاً جرى بين طفـل وشيخ وقت السحر ، وكانا ألـكنين . فقال الشيخ : يا من صار صبحى ليلا بهيما من زلفك ، ومن جمال وجهك أضاء ليلى كالصبح إذا تبلج . أنت ترياقى ومن شهد شفتيك يزول الصبر والحى عن جسدى . فقال الطفل غاضباً : لا تقلدنى ، واذهب عنى يا أقل من امرأة ! أأريد أن أضربك بقبضتى ضربة توقع مخك وسط فمك . فقال الشيخ : والله إن أمى ولدتنى ألـكن ، ولقد مضى والله أكثر من ثمانين سـنة وأنا ألـكن . فقال الطفل : شـكراً لله مائة مرة إذ أنجانى من اللال والمحن ، فإنى الـكن مثلك وأنت مثلى ألـكن ...

* * *

وكما قلد قاآنى عظماء الشعراء فى شعره فـكذلك قلد سعدى فى گلستان فـكتب كتابه المسمى « بريشان » ضمنه ثلاث عشرة ومائة حكاية وثلاثا وثلاثين نصيحة « ميكيافيلية » للملوك . وقد نفى عن كتابه شبهة التقليد فقال إنه كله من عنده .

* * *

**مجمر :**

وشاعر آخر من مشاهير شعراء القرن التاسع عشر الذين امتازوا بطابع خاص هو مِجْمر الإصفهانى ( سيد حسين الطباطبائى ) . وقد نجح هذا الشاعر فى أن يحظى برضاء ( فتح على شاه ) وإعجابه حين قدمه إليه « منشى الممالك » ميرزا عبد الوهاب . وقد مات مجمر شابا ، ويقول رضا قولى خان : « إنه لو طال عمره للقى نجاحا عظيما » . وقد خلع ناصر الدين شاه عليه لقب مجتهد الشعراء . ومن أشعاره الطريفة قوله فى الألغاز . قال فى لغز الريح :

من هذا الرسول المبارك المقدم السعيد الجناب
الذى يجرى آناء الليل وأطراف النهار ويسارع السنين والأشهر
فى ذيله النافجة وفى عيبه العبير ،
فى جيبه العنبر وفى كمه المسك الأذفر ،
سيّار بلا قدم أو رأس ، مجنون بلا عقل أو وعى ،
عاشق لا بيت ولا مأوى ، هائم لا أكل ولا منام ،
لا يدرى أحد أى عشق أفقده القرار
ولا درى أحد أى هجر أورثه العثار ،
يخرج منه الماء خروج قلب العاشق من زلف الحبيب
تارة فى السلاسل ، وتارة فى العذاب ،
تارة يميت الأرض ، وطوراً يحييها
كالقُوَى فى الهَرَم ، والطبيعة فى الشباب ؟

* * *

وله فى لغز القلم :

أنا سحابة تمطر الجوهر على حديقة ورد النفس الناطقة
أمطر السكر ، أنثر العنبر
مثل شفة الحبيب وزلف الرفيق

وأنا المعبّر عن طبع « الدستور[1] » وأمر السلطان
حين أنثر الدر ، وأمطر الجوهر ؟

* * *

وقد امتاز مجمر بقصائده فى مدح السلطان والأمراء وكان يقلد فيها مدائح السابقين .

* * *

**أسرة وصال :**

ومن المشاهدات التى تشاهد فى أدب القرن التاسع عشر أن تجد الأسرة وقد حافظت على إمارة الشعر فيها ، ، فتجد الوالد وأبناءه وكلهم شاعر مجيد ، مع أن منهم من لا يتخذ الأدب وقول الشعر صناعة بل يشتغل بالطب مثلا فلا يلهيه الطب عن قول الشعر والنبوغ فيه . وتجد من الأسرة الواحدة من يقول الشعر فيقلد الأقدمين من الشعراء و يسير سيرتهم ومنهم من يرتحل إلى أور با فيصف أشياء لم يعرفها الناس فى إيران و يدخل اللغة ألفاظا أجنبية ليست منها . حقيقة إن وصف هذه الأشياء لا يخرج القول عن أن يكون وصفا ، والوصف غرض من أغراض الشعر المعروفة لدى الفرس ، ولكن لأفكار الجديدة التى يصورها الشاعر والألفاظ الجديدة التى يستعيرها للدلالة على معانٍ ليست موجودة فى بلاده ؛ كل هذا يكسب وصفه جدة تميزه وتجعل له طابعاً خاصا .

وخير مثال لهذه الأسر التى تسلسل فيها الشعر وحافظ أفرادها على ما كسبوا من ألقاب أسرتا ( وصال ) و ( صبا ) .

كان وصال (ميرزا شفيع الشيرازى المشهور بميرزا كوچك) من أشهر شعراء القاچاريين . وقد اهتم به رضا قولى خان فتحدث عنه فى ثلاثة من كتبه كما عنى به بشل فى كتابه « تذكرة دلكشا» وقال عنه إنه كان صاحب فن ، يجيد الخط والعزف و يقول جيد الشعر ولكنه كان سريع الغضب ، و إنه كان مخلصاً لأصدقائه و يجمل القول فيه فيقول « كان عديم المثال » . كذلك رضا قولى خان يرى فيه مثل رأى صاحبه ، وكلاهما كان صديقا لوصال ، و يقول

---

(١) الدستور هو الوزير

رضا إنه كان شديد التأثر إلى حد أنه غضب حين أراد السلطان أن يبدى إعجابه به فقال له إنك أسرفت فى الكمال . وقد كتب ديوانا بلغت أبياته نحو إثنى عشر ألف بيت معظمه فى الغزل الذى يعتبر الفن الذى آثر النظم فيه فبزّ وأبدع . وقد أجاد فى المثنوى أيضا ويشهد بذلك كتابه « بزم وصال » ، وقد أتم « فرهاد وشيرين » التى بدأها ( وحشى ) . ويقول بعض النقاد إن التكملة خير من الأصل . ثم إنه اشتغل بالترجمة فنقل إلى الإيرانية كتاب «أطواق الذهب » للزمخشرى .

ومن أشعاره التى يقلد فيها منوچهرى قوله فى وصف الزلزال :

إن هذا البلد ، من كثرة هزات الزلازل ، قد تقطعت منه المفاصل .

وارتفع من شقوق الأرض بخار بتن كرائحة السحر من بئر بابل .

وقضى على رسوم هذه الديار فدرست كما تمحى من النفوس الفضائل .

وترى وجوه الغيد تحت الثرى ، فليس يقال إن الطين دون الشمس حائل .

* * *

ومن أبياته التى حوت معنًى لطيفاً قوله :

تنبه فلا تغضب منك أى قلب فلكل قلب إلى الله طريق .

وقوله :

فاض دمعى حتى غرقت به ، والنار تكوينى

عجبا لحالى ، كيف الحريق وأنا فى الدمع غريق .

* * *

وكان لوصال أبناء يقولون الشعر ، وقد اشتهر منهم وقار وداورى ويزدانى وهمت وحكيم وميراز أبو القاسم فرهنگ وقد تحدث أحدهم عن الخمر ، وآخر عن رحلة صيد للسلطان وثالث تناول الفنون الشعرية كما تناولها من سبقه من الشعراء ، ولكن الأخير منهم تحدث يصف باريس مستعملاً فى هذا الوصف ألفاظاً فرنسية متناولا ماراًه فى هذا البلد الجميل المتلألئ الذى فاض بالجمال وظهرت به المدنية الغربية فى أحسن مظهر لها بين مدن أوربا ، والذى استهوى ولا يزال يستهوى الكثيرين من أهل الفكر . على أن باريس كانت جديدة حينذاك بالنسبة لإيران كل الجدة ، فإن الرحلات إلى الغرب لم تكن قد كثرت بعد ، وإذا

كانت البعثات العلمية قد بدأت توفد فى ذلك الحين إلى باريس فإن الشباب المبعوث كان منهمكا فى العلم دائبا على التحصيل فى المعاهد المختلفة وفى المكتبات الكثيرة التى تلحق هذه المؤسسات العلمية . أما الأديب الذى كان يبحث عن المعانى الحقة للمدنية فقد بهره مارأى وآثر أن يجعل هذا فى قالب شعرى . فكانت قصيدته التى نتحدث عنها . إنه معجب بسكان هذه المدينة الأحرار الذين تلمس الحرية عندهم فى كل ما يشعرون ويفعلون ، إنهم جميعا سادة فلا سيد ولا مسود ، ستقرأ ما شئت أن تقرأ بغير حظر أو قيد وستتنقل ما شئت التنقل بلا رقيب أو حسيب وستحس حريتك التى خلقت بها وليس لبشر عليك سلطان فإنك حر بين قوم أحرار . وستجد كلا فى عمله دائبا عليه يجنى منه ما يعيش به كريما ، وترى دولة ترعى هؤلاء الذين يكسبون قوتهم بأيديهم فهى توفر لهم سبل العمل وتحميهم من صاحب هذا العمل فتراهم جميعا يعملون وليس بينهم من لا يجد عملا أو من يبحث عن قوت .

وشوارع باريس جميلة قد زينتها الأشجار فبدت كأنها حديقة إرم ، ففى كل ناحية ترى السرو والصنوبر ، وتراها قد تلألأت بالنور فإن الحكومة لم تتوان عن إضاءتها فأكثرت المشاعل والمصابيح والشموع ، وقد كثرت فيها البساتين التى امتلأت بخمائل الزهور فأينما سرت ترى الورد والنسرين وترى فى كل طرف الورد والزهار حتى أصبحت باريس من كثرة ما فيها من الورد والعطر ورائحة الريحان كأنها « مجمع عطور » . ويدخل الشاعر الحوانيت ليشترى ما يريد فإذا به لا يجد من يناقشه الأسعار ، إنه يشترى بثمن واحد لا خلاف عليه ، وهو مطمئن لهذا الثمن الذى يدفع ، فلا كذب ولا تحايل . إنهم قوم يقولون الصدق ويخلصون فى العمل فإن الصدق عندهم شعار .

وهم على دين واحد ، عيسويون ، وقد أخذوا عن المسيح خلقه ، فهم يتحلون بخير الخلق ، فهم صادقون ، وكل منهم يؤثر صاحبه على نفسه ، ولذلك ساد الأمن فى المدينة بغير سلطان ، وصلح الناس من غير قوامة الإنسان على أخيه الإنسان . وهم متضامنون متآزرون ، الأمر بينهم شورى فإذا تمت كلمة أيدوها وعملوا بها ، فلا تنافر ولا تخاذل ، إذا قاموا فليس من قاعد ، وإذا عزموا فلا مثبط لهم .

ويعجبه انتشار العلم فيهم ورقى هذا العلم الذى ذلل لهم كل صعب ، وكشف لهم عن كل سر .

والحقيقة أن دراسة هذه القصيدة لا تقف عند حد سرد وقائع أعجب بها الشاعر فعددها واحدة واحدة ، وإنما قصد الشاعر إلى ذكر المظاهر التى تنقص بلاده ، فهو حين يشيد بالحرية الشخصية وكرامة الفرد فى المجتمع إنما يقصد المطالبة بالعمل بهذا المبدأ فى بلاده حيث سلطة الحاكم مطلقة لا قيد لها من دستور أو قانون . وهو حين يتحدث عن العمال وتيسير العمل إنما يقصد واجب الحكومة الإيرانية فى أن تشجع الصناعة وتعمل على توفير العمل للعمال حتى لا يكون بينهم متعطل ، وأن تحمى هؤلاء العمال من أصحاب العمل فتكفل لهم من الأجر ما يهيئ لهم أسباب العيش الكريم . وكذلك يقصد العناية بطهران كما عنيت الحكومة الفرنسية بباريس فتقيم فيها الحدائق الغناء وتغرس فى شوارعها الأشجار . وتشيد بها المدارس وتنشر دور العلم . وهو حين يتحدث عن الشورى وإجماع الأمر على ما يقرره نواب الأمة إنما يقصد ما كان ينادى به المستنيرون من الإيرانيين فى ذلك الزمان . فقد التمس جمال الدين الأفغانى من ناصر الدين شاه أن يسمح بمشاركة الشعب فى الحكومة عن طريق مجلس نيابى ، ولكن صوت السيد قد ضاع سدى فلم تكن العقلية الحاكمة تقيم لمثل هذه الآراء وزنها الواجب ، واضطر إلى الهجرة كثير من أحرار الفرس كى يتاح لهم النداء بهذا الرأى فى الخارج ، وكذلك أخذ الشعراء والكتاب يكتبون تصريحا وتلميحا ، وفق ما يقتضيه الحال ، ومن هذا ما كتبه فرهنگ عن الشورى التى سادت الحكومة فى فرنسا .

هذه أمثلة من الأفكار التى بثها الشاعر فى قصيدته الطويلة تبين الاتجاه الجديد الذى سار فيه الأدباء فى ذلك الوقت ، وهو الاتجاه الذى أدى فى أوائل القرن العشرين إلى ثورة انتهت بمنح الإيرانيين دستورا يتيح للشعب أن يشارك بعض المشاركة فى توجيه الحكومة .

* * *

## أسرة صبا

وأسرة أخرى نبغ فيها الشعراء واحداً بعد آخر هى أسرة صبا ، ملك الشعراء . واسمه فتح على كاسم جد القاچاريين وكاسم ثانى ملوكهم . وقد تحدث عنه رضا قولى خان ، وكان

من المعجبين به فقال إنه لم يدانه شاعر فى إيران طوال سبعة قرون . وهو الذى يؤثر بعض النقاد كتابه « شاهنشاه نامه » على شاهنامة الفردوسى نفسها . وكما قلد الفردوسى فى شاهنامته فكذلك قلد كتب سِيَر الملوك التى أخذ عنها الفردوسى وغيره من المؤرخين المسلمين الذين كتبوا عن إيران وهى الكتب المعروفة باسم « خداى نامها » أى كتب الملوك ؛ فألف صبا كتابا على مثال هذه الكتب سماه « خداوند نامه » أى كتاب الملك ، وجعله على وزن الشاهنامه . وله أيضا « عبرت نامه » و « گلشن صبا » ثم له ديوان شعر . وقد شارك هذا الشاعر فى الحكومة فكان عاملا على قم وكاشان ، ولكنه قصر الجهد آخر الأمر على خدمة مولاه فتح على شاه الذى لقبه بملك الشعراء .

* * *

وكان لهذا الشاعر ولد هو حسين خان الملقب بعندليب ، وكان شاعرا مجيدا خلف والده كملك للشعراء أيام فتح على شاه ثم ظل محافظا على لقبه حتى عهد ناصر الدين .

* * *

ثم أنجب ولدا سماه محمودا وقد صار ملك الشعراء أيضا فى زمن ناصر الدين شاه . وهكذا حافظ ثلاثة من أسرة واحدة على هذا اللقب .

* * *

### محمود خان ملك الشعراء

كان يجيد الشعر ويسير سيرةَ الاول فيه . وهو مع نبوغه فى الشعر لم يكن يقتصر عليه بل تبحر فى علوم الحكمة والحديث والتفسير والأدب كما أجاد صناعة الخط والنقش والترصيع وقد قربه ناصر الدين شاه وخلع عليه اللقب الذى حمله أبوه وجده من قبل .

وهذه الأبيات من شعره فى حلول النوروز وهلول الربيع دليل على قدرته فى النظم على نهج المتقدمين وما له من الذوق الجميل والقريحة الصافية : يقول :

تعال معى ، لحظة يا حبيبى فى الحديقة
وقت السحر ، حين يغرد القمرى
إنى ذاهب إليها غدا

حين يبتسم السورى[١]
من ناحية ترى الأرض زرقاء مما تفتح من بنفسج
ومن ناحية تراها بيضاء من زهر النَفَل[٢]
الرعد ينحب والسندس بالنحيب يطرب
ويبكى السحاب والمرج من البكاء يضحك
حيثما تسير تجد الشقائق البرية
وترى الشمعة الوضاءة علت القدح الأخضر
وجانب الجدول ملىء بالشقائق والمَرْزَنجوش[٣] ،
فاسترح وأقم مخيمك يا حبيبى بجانب الجدول .
وتوسل بالفرح فى موسم الزهر
وخلص النفس من الحزن والغم .
فالحزن فاكهة مرة لا تقربها
واجتث شجرته التى تثمره من أساسها
ولا تفكر فى الليلة الحالى
فلا يعلم أحد ماذا تلد غدا .

* * *

ثنائى : وما دمنا بصدد الشعر فإنى ذاكر كلمة عن أحد كبار الكتاب فى إيران فى القرن التاسع عشر ؛ فقد قال الشعر أيضا باسم ثنائى وكان مجيدا فيه إجادته فى النثر ، إلا أن شهرته فى الأخير أبعد وأمكن ، هذا هو الشاعر الكاتب ميرزا أبو القاسم القائمقام ، الذى كان وزيرا لفتح على شاه ، مدبراً لسياسته مُسطرا لكتبه للملوك ، والذى أدبر حظه أيام محمد شاه فعزل ثم قتل .

ويمتاز هذا الشاعر بمعرفة الحالة السياسية فى البلاد التى كان وزيرها ، فهو يبغض الروس والإنجليز لأنه يعرف خبيث نواياهم وقد رأى الروس يهزمون جيوش بلاده أيام فتح على شاه ، ورأى نفسه مضطرا أن يكتب معتذراً إلى قيصر الروس لأن بعثته قد قتلت على

(١) الورد الأبيض . (٢) ورد .
(٣) الورد الأبيض والكلمة معربة أصلها مرزنكوش .

بكرة أبيها فى إيران ، وقد كتب ينبه قومه إلى أن لا يأس مع الحياة ، فإن الحرب كرّ وفر ، وإذا كان الروس قد غلبوا اليوم فإنهم غدا سوف يغلبون . قال :

إن الزمان تارة يعز وتارة يذل ،
وللفلك الدوار كثير من هذه اللُعبات .
إذا أقبل فكثيراً ما يخطئ المكان والزمان
وإذا أدبر فطالما آلم وأهان .
إنه يعطف أحيانا على ضباط الروس [1]
وأحيانا يسوق ضباط إيران النصر بالكوس .
يريد حينا أن يكون الجيش بيد ذئب مفترس
ويدع البلاد طوراً فى يد مجرب يسوس .
يسوق على تبريز ، مرة ، جيشا يريق الدم من بطرسبورج
ويسيّر أحيانا جيشا جراراً من خراسان إلى تفليس .

* * *

**أدب البابية :**

وقبل أن أختم الحديث عن الشعر الفارسى فى القرن التاسع عشر أشير إلى أدب البابية ، والبابيون هم أتباع المذهب الذى ابتدعه ميرزا على محمد الذى اشتهر بالباب .

معنى كلمة الباب : ظهر فى إيران أيام محمد شاه (سنة ١٨٤٤) رجل اسمه ميرزا على محمد ولقب نفسه « بالباب » ، وإليه نسبت الجماعة فقيل لهم « البابية » . وقد قصد بهذه التسمية أنه هو الباب الذى يدخل منه المؤمنون لمعرفة الإمام الثانى عشر . وينسب الشيعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » . فكما أن عليا هو الباب لمدينة العلم التى هى محمد صلى الله عليه وسلم فكذلك ميرزا على محمد هو « الباب » لمدينة العلم التى هى الإمام . ولم يكن هذا الرجل أول من تسمى « بالباب » بهذا المعنى ، فقد سبقه إليه فى الإسلام الشلمغانى الذى قتله الخليفة الراضى بتهمة التسمى « بالباب »

(١) يقول الشاعر رتب الضباط ، فالروس : پلكنيك ، كپيتان ، أفيسر . والفرس سرهنگ (بكباشى) ، سرتيپ ( أميرلاى ) ، سردار ( قائد ) .

والقول بالتناسخ . وكذلك تسمى به أبو القاسم الذى عدّه أتباعه واحداً من « الأبواب » المؤدية لمعرفة صاحب الزمان ، ويُذكر الاسم كثيراً عند الباطنية .

وكان ميرزا على محمد طفلا يتيما تعهده خاله وكان تاجرا ، فعلمه القراءة والكتابة و بعض قواعد الحساب . وقد كان به انحراف عصبي منذ طفولته فكان يعتكف فى بيت خاله و ينقطع إلى رياضة نفسه حتى ضعف وهزل وتعرض لنوبات شديدة كان يفقد فيها الوعى ، فرأى خاله أن خير وسيلة لشفاء هذا « الوَلِيّ » أن يرحله إلى كربلاء ليحضر دروس السيد كاظم تلميذ الشيخ أحمد الأحسائى صاحب مذهب « الشيخية » . وهناك توفر الشاب على الدرس والتحصيل ومارس رياضة النفس ، ودأب على المجادلة فلم يصبر الناس على جدله ، فتركهم وسافر إلى شيراز حيث أعلن أنه « الباب » .

و إذا تصفحنا تاريخ إيران نجد أن ميرزا على محمد ليس أول من خرج على دين الدولة ، فمن قبل عمل الساسانيون الأُوَل على جمع الكلمة فى إيران فوحّدوا إقليمها واتخذوا من الأوِسْتا دينا واحدا لها . فلم يمض على ذلك كثير حتى ظهر مانى بقواعد جديدة جمعت بين دين زردشت الذى جُمِع فى الأوستا و بين أصول الدين المسيحى وأخذ يبشر بمذهبه واستطاع أن يقنع عددا كبيرا من الأشراف به ، حتى أن سابور خليفة أردشير كان بين مصدق له ومكذب ، إلى أن خشيت الفتنة من دعوته فقتلوه . ومن بعده ظهر مزدك الذى دعا إلى الإصلاح على أساس دين جديد جمع فيه بين قواعد الأوستا و بين النظام الاجتماعى المثالى الذى يقوم على المساواة بين الناس . وقد لقيت فتنة مزدك من نفوس العامة استعدادا كبيرا فأخذ كل يفسر الدين الجديد حسب هواه ، وانتهى أمر الرجل بقتله ، أما أتباعه فقد تشتتوا وسكنوا الجبال والأطراف البعيدة وظلوا على معتقداتهم حتى دخل الإسلام إيران فظهر من هؤلاء خارجون عليه من أمثال سنباد .

وقامت الدولة الصفوية ورأى الشاه اسمعيل أن يتخذ مذهب الشيعة الاثنى عشرية مذهباً رسميا للدولة ، كى يخلص من التبعية الروحية للخليفة العثمانى ، وقد حفزه على هذا عامل السياسة وشجعته عليه دول أوربا ، فلما آل أمر إيران إلى نادر شاه بدأ اضطهاد المذهب الشيعى والتفكير فى العودة إلى المذهب السنى بل ذهب إلى التفكير فى خلق دين جديد للدولة .

وقبل مائة سنة من مقتل نادرشاه ظهر « الباب » فى إيران بمذهب جديد ، مزج فيه ما تعلم — وكان علمه ضئيلا — من قواعد الأديان المشهورة ، الإسلام والنصرانية واليهودية والمجوسية وجعل لنفسه كتابا سماه « البيان » وخرج على دين الدولة داعيا الناس إلى دينه . ولم يتح للباب أن يتصل بالناس ويدعوهم بنفسه فإنه كان ، حتى قتل سنة ١٨٥٠ ، سجينا معظم الوقت . فأخذ يؤلف الكتب المذهبية وهو سجين ، بينما أخذ أتباعه يدعون له ولمذهبه فى حماسة وقوة ، حتى استطاعوا القيام بثورات مسلحة وأحرجوا الحكومة . وقد أخذ أتباعه يزدادون ، وساعد على ذلك أن من الشيعة من يرى أن للإمام المهدى « أربعة أبواب » يتصل بواسطتهم بأتباعه المؤمنين أثناء « الغيبة الصغرى » . وقد نادى « الشيخية » ، وقد تعلم « الباب » على إمامهم ، بوجود « واسطة » بين الإمام المستور وأتباعه فى كل زمان .

على أن ميرزا على محمد لم يقنع بما ذهب إليه من أنه واسطة بين المؤمنين وإمامهم ، بل ذهب أبعد من هذا ( بالا تر رفت ) فسمى نفسه « النقطة العليا » أو « نقطة البيان » أو « النقطة الأولى » ثم « القائم » و « شجرة الحقيقة » و « ذات الحروف السبعة » — حروف على محمد — ثم « حضرة الأعلى » وغير هذا من الأسماء . وازداد أصحابه غلوًا فتسمى بعضهم « بالله » وسموه هو « خالق الآلهة » ( خدا آفرين ) . وحين أدرك على محمد أنه أخطأ إذ حسب نفسه « الباب » وأنه أعلى قدرا من أن يكون « بابا » أصبح لقب الباب ولا حامل له فحمله على أخلص أتباعه الملا حسين بشرويه ، فسماه البابية « جناب الباب » وسماه بعضهم « جناب باب الباب » .

ولما ازداد غلو « البابية » وخشيت فتنتها رأى ناصر الدين شاه أن يقتل « الباب » فقتلوه سنة ١٨٥٠ . وخلفه ميرزا يحيى الذى هرب إلى بغداد وسمى نفسه « صبح الأزل » ولكنه لم يكن قويا واضطره أخوه حسين الملقب « بهاء الدولة » إلى الاعتكاف والصمت وانفرد هو برياسة المذهب وأصبح أقوى رجل فيه . وفى سنة ١٨٦٣ ادعى بهاء الله أنه هو الذى « يظهره الله » ودعا البابيين كافة ليستجيبوا له فاستجابت كثرتهم . ولكن صبح الأزل وصحبه عصوا ومن ذلك الوقت انقسمت البابية إلى فرقتين : « الأزلية » أو « البيانية »[1] و « البهائية » نسبة إلى بهاء الله . وكان الأخوان قد انتقلا من بغداد إلى استنبول ثم إلى

(١) نسبة إلى كتاب البيان .

أدرنة ( أرض السر ) وهناك حدث الانقسام فنفت الحكومة العثمانية صبح الأزل إلى قبرص حيث مات سنة ١٩١٢ ، ونفت بهاء الله وأتباعه إلى عكا حيث مات سنة ١٨٩٢ فخلفه ابنه « عباس افندى » الذى استطاع أن يكسب للمذهب أنصارا فى أوربا وأمريكا .

* * *

والذى يهمنا فى هذا الحديث هو أدب البابية لا دينها ، ولذا فإنا نترك موضوع الدين للأدب فنتحدث عن شاعرة من شعراء البابية .

**قرة العين :**

كانت قبلة الأنظار وموضوع الحديث لدى الناس ، فقد كان لها من الجمال والكمال وعلو الهمة وسلامة المنطق والقدرة على الحديث والإبداع فى الشعر ثم الحماسة التى لا توصف للمذهب البابى ما جعل الناس ينظرون اليها ويعجبون بها ويشفقون عليها . سمع بها ناصر الدين شاه كما سمع بها الناس فأعجبه ذكرها ، وراق له أن يستمع لها ، فطلب أن يلقاها فى الوقت الذى اشتد فيه طغيان البابية وسددت الدولة قواها للقضاء على حركتهم ، واقتادت جماعة منهم إلى طهران لتقتلهم جهاراً حتى يكون مقتلهم للناس عظة وعبرة ، فأتوا بها إلى الشاه من محبسها ، فدخلت عليه غير هيابة ولا وجلة ، مؤمنة برسالتها ، معتزة بما تعتقد أنه الحق ، فحدثته واستمع اليها وطال استماعه . فلم يقو الشاه الذى أمر بقتل البابية قتلاً وتعذيبهم عذابا لم يره أحد ، إلا أن ينظر إلى وزرائه وقد أحاطوا به ليأمرهم ألا يقتلوا هذه السيدة التى سحرته ببيانها وثباتها وحلو حديثها :

لقد أعجبتنى ؛ دعوها تعيش .

ولكن السياسة هى السياسة وقد اقتضى الأمر أن تُقتل قرّة العين ، فلم يكن من الحكمة أن يخلّى سبيلها ، وهى أخطر الدعاة على الدولة ودينها ، فى الوقت الذى يقتل فيه من ليس له فى الدعوة مثل شأنها ، فقادوها إلى الجلاد وأمروه أن يلقى بها حية فى النار ، حتى تلقى بعض ما لقيه أصحابها من العذاب . وينظر الجلاد إليها فلا يقوى على أن يطعم هذه السيدة الفذة النار ، ولكنه لا يجد مفرًّا من أن ينفذ فيها حكم القضاة ، فإنه لا يملك غير التنفيذ ، ويحاول إلقاءها حية فلا تطاوعه يداه ، ويراها تعينه فى شجاعة وجلد وعزة على

ما لا يستطيع أن يقدم عليه ، فيتراجع و يفكر و يدبر فى لحظة لا وسعة فيها لتدبير أوتفكير ، ثم ينقض الرجل ، وقد فقد وعيه ، على السيدة الجميلة التى امتلأ قلبه شفقة ورحمة عليها فيخنقها بيديه حتى لاتتعذب فى النار وحتى تصلاها جثة هامدة قد خلت من هذا الروح المتوثب الذى لم يكن يعرف غير القوة فيما يعتقد أنه الحق والذى أقدم على جلاده رافع الرأس ، متزن الخطى ، ثابت الجنان .

* * *

نشأت هذه السيدة فى بيئة دينية ، فأبوها من رجال الدين وعمها من أشد شيوخ الدين حمية ومن أكثرهم سخطا على الشيخية والبابية ، ولكنها وجدت فى عم ثالث لها ما شجعها على المضى فى درس علوم الدين متجهة نحو المذهب الشيخى الذى كان هذا العم يميل اليه . ولم يرأبوها بدًّا من أن يهيىء لها وسائل التحصيل ، فقد كان لها من الذكاء والاجتهاد ما لم يتح للسيدات فى ذلك العهد ، فأرسلها إلى كربلاء حيث كانت مدرسة الشيخية وعلى رأسها السيد كاظم تلميذ الشيخ أحمد الأحسائى . وكان السيد كاظم يحاضر تلاميذه و يبين لهم صدق ماذهب اليه شيخه من وجود « واسطة » بين الإمام والمؤمنين فى كل زمان ، مضيفاً إلى هذا أن « الواسطة » سيظهر قريباً ، وأن ظهوره موقوت بموت السيد كاظم نفسه . وكان من بين الحضور شاب متحمس يتطلع إلى أستاذه فى اقتناع و إيمان ؛ ومن وراء ستار جلست الفتاة التى رحلت من قزوين لكى تستمع إلى درس السيد وكلها آذان مصغية واعية لما يقول . أما الشاب فهو السيد حسين بشرويه ( الذى لقبه صاحب الدعوة بالباب فيما بعد والذى يسمى فى كتب البابية جناب الباب أو جناب باب الباب ) وأما الفتاة فهى زَرّين تاج التى اشتهرت فيما بعد بقرة العين أو جناب الطاهرة والتى كان يسميها «الباب» فاطمة فى بعض كتبه .

ومات السيد كاظم وسافر تلميذه بشرويه إلى شيراز لعله يلقى « الواسطة » المنتظر ، وكتبت إليه قرة العين أن يبشرها باسم « صاحب الظهور » وأن يحدثها عنه إذا هو لقيه . واتصل بشرويه « بالباب » وأطلعه على خطاب الفتاة التى تنشد وجوده وتنتظر « ظهوره » ، فأعجب بها وراقه ما رأى من كتابتها فجعلها من بين الحروف « الحية »

الثمانية عشر التى تكوّن ( الوحدة الأولى ) من المذهب البابى . وكتب بشروبه إليها ينبئها بظهور « الباب » وبما بلغت من منزلة عنـده . فآمنت بما سمعت وأصبحت من أشد دعاة البابية حماسة .

وكانت قرة العين فى ذلك الوقت تجلس فى مسجد كربلاء من وراء ستار قد تجمع التلاميذ أمامه فكانت تتحدث إليهم حديث الأستاذ الراحل ، ولـكنها زادت عليه أن نقلت إليهم بشرى ظهور « الواسطة » وأنه « الباب » فى شيراز . وأخذت تدعو إليه والناس يستمعون إليها ويتكاثر عددهم يوما بعد يوم . ويخاف الوالى من ظهور الفتنة فى كربلاء ويحاول أن يقبض على قرة العين ولـكنها تهرب إلى بغداد فتسرع إلى بيت المفتى وتوضح له مذهبها وتجادل عن رأيها تريد أن تدخل الرجل فيه ، وأن تظفر بالسماح لها بأن تلقى دروسها وتبث دعايتها فى المسجد . ولـكن مفتى بغداد يخاف الفتنة كما خافها والى كربلاء فيبصر الحـكومة العثمانية بعقبة ما تدعو إليـه فيأمر الوالى بإبعادها فتخرج إلى كرمانشاه . وكانت فى رحلتها تدعو الناس ، كلما استطاعت التحدث إليهم ، إلى الدين الجديد ، ودخل الـكثيرون فيه . ولـكن بعضهم أشفق على الدين من دعاية سيدة محجبة ، فإن هذا عمل الرجال ، فلم يكن الإيرانيون قد ألفوا أن تقوم فى وسطهم سيدة تدعوهم إلى مثل هذه الدعوة ، فكتبوا إلى « الباب » مستنكرين من قرة العين ظهورها أمامهم وتحدثها إليهم بصوت عال . فبعث الباب إليهم كتابا مثنيا على جهادها مزكيا إياها مسبغاً عليها لقب « جناب الطاهرة » فندم الشاكون على ما شكوا . ومن ذلك الوقت ازدادت نظرة البابيين إليها علواً وأصبحت السيدة الأولى فى المذهب .

وبلغت همدان فلم تقنع ، كما يفعل سائر الدعاة ، بدعوة الناس . إنما رأت أن تقنع الشاه نفسه بالدين الجديد كى تدخله فيه . وكان يجلس على العرش حينذاك محمدشاه ، وكان ساخطا على من يتحدث فى الخروج عن مذهب الدولة الرسمى أشد السخط ، فإنه لم يكن قد استراح بعد من إخماد حركة الإسماعيلية ، وكان يحاول أن يقضى على فتنة البابية التى بدأت فى الظهور . وسمع أبوها بما تقصد إليه فخاف عليها أن يقتلها الشاه إذا هى حدثته بمثل ما عزمت فبعث جماعة من أتباعه إلى همدان ليحملوها إلى بيتها فى قزوين .

هناك يزوجها أبوها من ابن عمها المجتهد الذى لا يألو جهدا فى محاربة البابية . وكان الولد كأبيه من أشد الناس سخطا على بدعة « الباب » ومن يدعو إليه . فلم يكن زواج قرة العين موفقا ولم يدم طويلا ، واضطرت أن تهجر بيت زوجها وأن تعود إلى بيت أبيها الذى ودّ لو شغلها البيت والولد عما هى فيه من حماسة للدعوة البابية . والحكومة فى ذلك الوقت ترقب حركات قرة العين وتلاحظ ما يكون من أمرها بعد الزواج فلما عادت إلى أبيها اشتدت الرقابة عليها وأوجست الحكومة منها خيفة ؛ ويزداد موقف السيدة سوءاً بمقتل عمها المجتهد فقد قتله جماعة من البابية الذين دخلوا الدين الجديد بدعوة منها وهى فى طريقها إلى بلدها ، فتتطلع الأنظار إليها ، وتتناقل الألسن اتهامها بالاشتراك مع قتلة عمها ، ويثور الشيعة ، ويلقبون القتيل « بالشهيد الثالث » ، وتقبض الحكومة على قرة العين ، ولكن تثبت براءتها من دم عمها فيطلق سراحها ، ولو وجد حاكم قزوين شبهة يستند إليها للإيقاع بها لما تردد . أما الجناة فقد سيقوا إلى طهران فكانوا أول قتلى البابية .

وتغادر قرة العين قزوين ، حيث لا يحلو العيش بعد الذى كان ، وتسافر إلى خراسان وتلقى « الباب » فى بَدَشت فتزداد به ولوعا . وبعد قليل يقبض على « الباب » ويقتل ، وترحل هى من بلد إلى بلد حتى تحمل مقبوضاً عليها إلى طهران ، فتحبس فى بيت حاكم المدينة ، ولكنها كانت تقابل من تشاء من الناس . ويأمر السلطان بأن يراها فيتحدث إليها ويعز عليه قتلها فيقول دعوها تعيش ، ولكنها تقتل بعد حين .

وكانت قرة العين ، إلى جانب نشاطها فى الدعوة البابية ، شاعرة يتناقل البابيون أشعارها ويروونها فى إعجاب وإكبار . ولو أن الناقد لا يستطيع أن يغفل القصص الكثير الذى حيك حول هذه السيدة وما جاء فى هذا القصص من شعر ينسب إليها . ولها ديوان صغير مطبوع . وكانت تبدأ أشعارها باللغة العربية ثم تكملها بالفارسية والعربية الغريبة معاً ومن ذلك قولها :

لمعات وجهك أشرقت وشعاع طلعتك اعتلى[1]
لم لا تقول « ألستُ بربكم » فإنك ، بلى بلى

(١) احتفظنا بأبياتها العربية كما هى وترجمنا أبياتها الفارسية نثرا

إن صدى « أَلَسْتُ » ليحيي على الأرض دوى ما نلقى من البلاء
لقد أقمت على باب قلبى خيمة لجيش الغم وخدم البلاء
كفانى عشق هذا الجميل الذى حين صُلّت عليه البلاء
قابله نشيطا مقهقها قائلا « أنا الشهيد بكر بلاء » .
إنه حين سمع نواح موتى أعدّ لى عدّتى وجهازى
« فمشى إلىّ مهرولا و بكى علىّ مجلجلا »
ماذا لو أضأت قلة « طور » قلبى بنار الحيرة
« فسككته ودككته متدكدكا متزلزلا[1] »
إن صدى « الصفير المهيمن » يبلغ أقدام مائدة عشقه من خيل الملائكة
و إنه ليصيح : الصلاة أيتها الفرقة البائسة .
أتستطيع صدفة من سمك الحيرة ، مثلك ، أن تأمل الغناء فى بحر الوجود ،
ألا فاجلس « كطاهرة » واستمع الحوت يردد « لا » .

* * *

ومن أشعارها :
« جذبات شوقك ألجمت بسلاسل الغم والبلاء »
من حُطمت قلوبهم من عشقك وفدوك بالروح ولاء
إذا حلى لحبيبى أن يقتلنى وأنا بريئة
« لقد استقام بسيفه فلقد رضيت بما رضا »
لقد زارنى هذا الجميل فى فراشى وقت السحر
« و إذا رأيت جماله طلع الصباح كأنما »
إن زلفه المسكى هو الذى يذكى نافجة خُتَن
و إن سحر عينيه حطم الدين الذى حار به الكفار عبثا

---

(١) إنك قويت قلبى بالمعرفة وأوحيت إليه بنشاط وحماس ثم سحقته وأخضعته بالحب ، أليس من الخير أن تضيئه الآن كما أضاءت على قلة الطور آية « إنى أنا الله » .

يا من غفلت عن الخمر والحب من أجل العابد الزاهد
ما حيلتى معك ؟ وأنت ترى فى خلوص نية الأصفياء ، الكافر الجاحد .
إنك لا تمنى بغير زلف حبيبك وحصانِك والسرجِ المعرق
ولقد قضيت العمر منكراً « المطلق » غير مبالٍ بالفقير والمسكين
ليكن لك ملك الإسكندر وجاهه ولى طريق القلندرى ( الدرويش ) ورسمه
فاغتنم ذلك ما حلى لك ، أما أنا فهذا يكفينى ولو ساء
واهجر منزل «نحن وأنا» واختر لك وطناً فى فلك الفناء
« فإذا فعلت بمثل ذا فلقد بلغت بما تشاء » .

## النـــثر

أما النثر فقد أخذ طابعاً جديداً فى سهولته ووضوحه وانتقاء الألفاظ التى تعبر عن المعنى المقصود بغير تكلف أو التواء . ولا شك أن الكتاب الذين استخدموا الجرائد لنشر ما يكتبون قد أخذوا عن كتاب الغرب من فرنسيين وإنجليز أسلوبهم السهل وأفكارهم الجديدة عن الحرية وحق الشعب فى أن يحكم نفسه وأن تكون الحكومة منه وأن يكون مصدر السلطات . وقد شاعت هذه الآراء فى كتابات الجرائد التى كانت تصدر فى خارج إيران باللغة الفارسية .

ومن أبرز الكتاب فى هذا القرن الذى نتحدث عنه رضا قولى خان الذى كان أول مدير للجامعة ، والقائمقام الذى تحدثت عنه بين الشعراء باسم ثنائى .

**رضا قولى خان :**

هو أحد أفراد آل كمال أبناء الشاعر الشيخ كمال خجندى الذى عاصر « حافظ الشيرازى » والمتوفى سنة ١٣٨٩ فى تبريز التى اتخذها مقاما لأسرته .

وكان جده اسمعيل كمال بك كبير أعيان چَارْدَه كلاَته من نواحى هزار جَريب ، وكان يدين بالولاء للقاچار يين فقتله زكى خان الزندى لأنه لم يخضع له . وقد روى رضا قولى خان

حادث مقتل جده غدراً وخيانة فى كتابه سفارة خوارزم ( سفارتنامهٔ خوارزم ) ( ص ١٣٣ — ١٣٤ طبعة بولاق ) فقال :

« وكان أهالى هذه الولاية ( چارده كلاته ) ميالين إلى الأسرة العلية العالية القاچارية منذ خرج بها السلطان محمد حسن خان ( كشورستان ) بن فتح على خان القاچارى القوانلوى . ولما ولى كريم خان سلطنة إيران رفض أهالى چارده كلاته الخضوع لقواده لأنهم أحبوا القاچاريين وأخلصوا لهم ، وكان من جملتهم جدى محمد اسمعيل بك المشهور باسمعيل كمال الذى كان رئيس الرؤساء لهذه الجماعة ، فلم يذعن لزكى خان ، ابن عم كريم خان الوكيل ( وكيل خدمت ) فأخذ زكى خان يضيق عليهم حتى تجمع واحد وأربعون من رؤسائهم فى جهة مُحَكَمَة وأخذوا يذودون عن أنفسهم فبعث اليهم برسالة وأقسم على القرآن المجيد قائلا : تعالوا عندى فإنى لن أقتل منكم أحدا . فخدعهم هذا القسم واطمأنوا وخرجوا من الحصن . فأطلق زكى خان سراح واحد منهم ، تبريراً لقسمه ، وأمر بقتل الأربعين وأن تبنى من جماجمهم منارة تخلد ذكرهذه الواقعة . فطلب جدى اسمعيل أن يجعل رأسه فوق الرؤوس جميعا لأنه كبير القوم . فعمل زكى خان بوصيته . ولا تزال المنارة باقية حتى اليوم . فلما سمع « الوكيل » بهذا غضب . . »

والتحق محمد هادى خان ، ابن اسمعيل ، بخدمة جعفر قولى خان قاچار فلما مات الأمير التحق بخدمة اغا محمد شاه وصار خازنه وكاتم أسراره . وفى سنة ١٨٠٠ بينما كان محمد هادى يحج إلى مشهد أتاه نبأ مولد ابن له فعاد إلى خراسان مسرعا وسمى المولود رضا تيمنا باسم الإمام الذى كان يزور مشهده . وولى فتح على شاه العرش فجعل محمد هادى ملتزما للخراج فى فارس ، ولكن الأجل لم يمهله فتوفى تاركا وراءه ولده سنة ١٨٠٢ . وانتقل الطفل اليتيم إلى طهران ثم إلى مازندران حيث عنى به بعض أقاربه فى بارْفُروش ، وشب الطفل فرحل إلى فارس حيث أخذ يتلقى العلم على مرهب فاضل هو محمد مهدى خان شَهْنه . فلما أتم الدرس التحق بوظيفة فى شيراز مستظلا بنفوذ والى خراسان الذى كان يرعاه ويشجعه . وكان رضا ينفق وقت فراغه فى القراءة والكتابة وقرض الشعر وقد اتخذ لنفسه لقب شاكر ثم جعله « هدايت » فيما بعد .

وجاء فتح على شاه إلى شيراز فقدم إليه رضا فأحسن استقباله وكان يعرف ما لآبائه من طيب الصلات بالبيت القاجارى وأنعم عليه بلقب أمير الشعراء وأمره بأن يحضر إلى البلاط فى طهران . ولكن المرض يحول دون ذهاب الشاب الطموح إلى العاصمة . ويموت فتح على شاه ويليه على العرش حفيده محمد شاه ، فيثور عليه والى خراسان وأخوه وكان رضا قولى خان يعمل عندهما . ويخمد السلطان الثورة وتتوثق الصلة بين رضا والوالى الجديد .

وتتاح الفرصة لرضا من جديد فإن شهرته تسبقه إلى طهران وقد أوفد اليها فى عمل ديوانى ، فرحب به الوزير حاجى ميرزا آقاسى وقدمه للسلطان الذى سر به وبما له من وافر الذكاء وواسع العلم وأدب الحديث فأمره بالإقامة فى طهران ونصبه رائداً لابنه عباس ميرزا نائب السلطنة ( سمى باسم جده ) ، وأجزل له العطاء وخلع عليه إقطاعات من ماله الخاص ، ولقبه بلالاباشى ( الرائد ) . ويموت السلطان عام ١٨٤٨ فلا تكون الظروف مواتية للأمير الذى يربيه ويضطر عباس ميرزا إلى الهرب من طهران ويلى الحكم ناصر الدين شاه فيعتكف رضا ويقبع فى داره منكبا على قرض الشعر والكتابة والتأليف ، ولكن عزلته لا تطول فإن السلطان الجديد يعفو عنه ويراه خير من يوفد سفيراً إلى خيوه عام ١٨٥١ . وحينما عاد من سفارته عين مساعداً لوزير المعارف ومديراً لدار الفنون فظل فى منصبه هذا زهاء خمس عشرة سنة ، عين بعدها رائداً لولى العهد مظفر الدين وكان حاكما على آذربيجان . وبعد سنوات من الالتحاق بهذا الأمير استأذن رضا فى العودة إلى طهران فأذن له . وهناك مرض ومات بين يدى أبنائه فى ٣٠ يونيو ١٨٧١ .

**أعماله العلمية :**

ولرضا قولى خان آثار علمية وأدبية كثيرة منها ما هو نشر ومنها ماهو تأليف ثم هناك الأشعار والرسائل :

**المؤلفات :**

١ — « نژاد نامهٔ پادشاهان إيرانى نژاد » تناول فيه الملوك الإيرانيين الذين حكموا إيران ، وقد جعله فى ثمانية عشر فصلا وخلص فى الخاتمة أهم حوادث التاريخ الإسلامى منذ

حياة النبي عليه الصلاة والسلام حتى العصر الذى كتب فيه الكتاب . ثم ذكر المراجع التى أخذ عنها والتى ذكرها فى حواشيه .

٢ — « فهرست التواريخ » وقد قدمه لناصر الدين شاه قبل سفره إلى خيوه . وقد طبع جزء منه فى طهران .

٣ — « أجمل التواريخ » وهو كتاب مدرسى ألفه لولى العهد الأمير مظفر الدين لخص فيه أحوال الملوك ابتداء من البيشداديين حتى ناصر الدين شاه .

٤ — « سفارتنامهٔ خوارزم » وهو من أحسن ما كتب بالنثر الفارسى وسنتحدث عنه على حدة .

٥ — «تتمة روضة الصفا » ، وكان ميرخوند قد ألف روضة الصفا مؤرخاً لإيران وما حولها ، فرأى رضا قولى خان أن يتم هذا الكتاب فأضاف الجزء السابع وكان غير معروف وقد جاء فى أسطره الأولى ما يدل على أنه من تأليف ميرخوند وموضوعه تاريخ أبى الغازى سلطان حسين ميرزا وأبنائه وذلك حتى سنة ١٥٥٢ . وكان رضا معجبا بهذا الكتاب فأتم حوادثه حتى بداية عهد ناصر الدين شاه ، ورجع فى كتابة هذه التتمة إلى مراجع لم تكن معروفة ، منها تاريخ عبد الغفار القزوينى ، وروضة الطاهرين لطاهر محمد السبزوارى ، وتاريخ الصفوية لميرزا صادق الأصفهانى خازن مكتبة الشاه عباس . ورجع فى كلامه عن عهد الزند والسنوات الأولى من عهد فتح على شاه إلى كتاب ميرزا صادق . ومن ناحية أخرى كان فى متناول يده وهو يكتب تاريخ إيران الحديث منذ بداية القرن التاسع عشر الوثائق الرسمية التى تبين صلة إيران ببعض دول أوربا وآسيا حينذاك . وقد سطر النص الكامل لبعض هذه الوثائق وعلق عليها . وهذا الكتاب الذى صيغ فى أسلوب سهل رقيق يمد القارئ بمعلومات واسعة عن الجغرافية والتراجم والآداب . وقد قدمه لناصر الدين شاه فى عشرة أجزاء ، سبعة لميرخوند وثلاثة من تأليفه ؛ وقد طبع فى مجلدين كبيرين بين سنتى ١٨٥٣ — ١٨٥٦ فى طهران .

٦ — « رياض العارفين » فى تراجم الشعراء المتصوفة ، وقد ذكر نبذاً منه فى سفارتنامهٔ خوارزم .

٧ — « مجمع الفصحا » وهو من أهم مؤلفات رضا . وأهميته الخاصة ترجع إلى روايته للنصوص الشعرية وللتفصيلات الكثيرة التى أفادها من مؤلفات تاريخية وكتب تراجم من الأهمية بمكان كبير . ويحوى الكتاب مقدمة فى تاريخ الشعر الإيرانى الذى لم يندثر بعد الفتح العربى ، بل ظهرت بوادره فى خراسان وبلغ درجة لا بأس بها أيام الخليفة المأمون . ويقول إنه حدث فى سنة ١٩٨ ( ٨١٣ ) أن قدّم السيد أبو العباس المروزى إلى الخليفة قصيدة من الشعر الفارسى بها كلمات عربية فأعجب بها الخليفة وأمر للشاعر بصلة ألف دينار . ويتحدث رضا عن الشعر الفارسى أيام الطاهريين والصفاريين والسامانيين والغزنويين والديلميين ثم السلاجقة ، وقد جعله أربعة أركان : الأول فى الشعراء من الملوك والأمراء وخص صفحاته الأولى بأشعار ناصر الدين شاه ؛ والثانى فى الشعراء من سنة ١٧٣ (٧٨٩) حتى ٨٠٠ (١٣٩٧) ؛ والثالث فى الشعراء المتوسطين ؛ والرابع فى الشعراء المعاصرين . وامتاز الكتاب برجوع صاحبه إلى كتب نادرة وبمعلومات لم يسبقه إليها أحد .

على أن الرغبة فى الإحاطة بكل شىء جعلته يتورط أحيانا فى أخطاء كان يستطيع أن يتفاداها . وقد عاب عليه القزوينى ( محمد ) فى حواشى « چهار مقاله » عدة عيوب . منها أنه ذكر أن البهرامى الشاعر كان معاصراً لسبكتكين ولكنه حدد وفاته فى سنة ٥٠٠ ( ١١٠٦ ) وهو سهو واضح لأن سبكتكين مات سنة ٣٨٧ ( ٩٩٧ )[١] . ومنها أنه غير ، فى قصيدة للأزرقى ، اسم طغانشاه بن محمد ( الپ ارسلان ) بطغانشاه بن مؤيد لتكون القصيدة فى مدح هذا الأخير[٢] ؛ ذلك لأن معظم المؤرخين يجهلون طغانشاه بن الپ أرسلان محمد بن جغرى بيك الذى كان حاكما لخراسان أيام الپ ارسلان وهو الذى مدحه الأزرقى . ولم يُعن كتاب التذاكر بتحقيق شخصية هذا الحاكم وظنوا أنه هو طغانشاه ابن مؤيد آى ابه ( ٥٦٩ — ٥٨١ ، ١١٧٣ — ١١٨٥ ) ، ومن هؤلاء رضا قولى خان الذى لم يكتف بالخلط بين الأميرين بل صحح الاسم كى يستقيم مدح الأزرقى مع ما ذهب إليه بغير تحقيق .

وعند ما تحدث عن عثمان المختارى الشاعر الذى مدح ملكا اسمه عضد الدولة لم يتحقق

---

(١) ج ١ ص ١٧٣

(٢) ج ١ ص ١٤٥ والحواشى على چهار مقاله ص ١٧٢ — ١٧٣

منه رضا خان فذهب إلى أنه عضد الدولة الديلمى الذى توفى سنة ٣٧٢/٩٨٢ أى ما يقرب من ثمانين ومائة سنة قبل وفاة المختارى ، وقد وضع صاحب مجمع الفصحا اسم مغيث الدين فناخسرو ، وهو اسم عضد الدولة الديلمى ، مكان معين الدين بن خسرو الذى مدحه المختارى .

على أن هذه المآخذ لا تنتقص من قدر الكتاب والجهد الذى بذله المؤلف لإحياء الأدب الإيرانى الإسلامى ، من نشأته حتى الزمن الذى كتب فيه . وقد طبع الكتاب فى جزءين فى طهران سنة ١٨٧٨ .

٨ — « فرهنگ انجمن آراى ناصرى » وهو آخر عمل علمى اشتغل به رضا ، وكان قد قرأ قبل تأليف كتابيه مجمع الفصحا ورياض العارفين دواوين الشعراء ، القدماء والمحدثين ، وأخذ منهم ما يقرب من مائة ألف بيت ذكرها فى كتابيه ، ورجع لكثير من المعاجم لفهم بعض هذه الأبيات فوجد فى هذه المعاجم من النقص ما حمله على عمل معجمه هذا الذى رأى ألا يذكر فيه غير الكلمات الفارسية ، ذاكرا معانيها مؤيدة بما يستشهد به من الشعر الموثوق به . وقد قدم لكتابه بذكر ما كان من عمل السابقين عليه فى هذا المضمار . وبعد ذلك بحث عن الكلمات الفارسية المعربة أو التى أخذها العرب وعن المصطلحات الأجنبية التى دخلت اللغة ، وماطرأ على الكلمات الفارسية والعربية من التغيير . ثم ذكر العبارات التى أساء فهمها علماء اللغة فعرفوها تعريفا ناقصا . وكتب فصلا مفصلا عن الأجرومية الفارسية . وقد قسم المعجم إلى قسمين الأول يتناول الأسماء والصفات والثانى شرح المصطلحات تشبيهاً ومجازا وأيد المعنى الذى ذهب إليه بأبيات مختارة من دواوين الشعراء المتقدمين .

* * *

**الأشعار :**

وله أشعار كثيرة منها ديوانه ويحوى أكثر من خمسين ألف بيت ، ومن أشعاره بعض رسائل دينية مثل بحر الحقائق الذى قلد فيه سنائى ، ومنهاج الهداية ( هدايت نامه ) وأنوار الولاية اللذين قلد فيهما مخزن الأسرار لنظامى ، ثم مفتاح الكنوز ومعراج البلاغة .

ونظم كتابا سماه « گلستان إرم » أو « بكتاش نامه » وهو نظم فى أسلوب سهل يحكى قصة عشق بكتاش بن حارث لربيعة بنت كعب والنهاية الحزينة لهذين العاشقين .

***

**النثر :**

وفى أثناء إقامته الطويلة فى شيراز حصل على مخطوط قديم به جزء من أشعار منوچهرى المتوفى سنة ١٠٢٩/٤٢٠ فجد فى البحث عن بقية أشعار هذا الشاعر وهو فى فارس وطهران وأعد للطبع ديوانه أو بالأحرى ألفين وثلثمائة بيت من شعره . وقد طبع فى طهران بعد وفاة رضا . كما نشر « قابوس نامه » للأمير عنصر المعالى كى كاوس بن اسفنديار .

والحقيقة أن إيران لم تشهد فى الحقبة التى نتحدث عنها عالماً أديبا خصّص للبحث من الوقت والجهد مثل رضا قولى خان . وقد كان من التوفيق أن يكون على رأس أول جامعة أسست فى إيران . فإن ثقافته الواسعة ورغبته فى الإصلاح عن طريق الثقافة قد ساعدتاه على ألا يدخر وسعاً فى تشجيع الناشئين من الأدباء و بعث المتفوقين من الشبان إلى أوربا للتعلم فى جامعاتها .

***

**سفار تنامهٔ خوارزم :**

و إذا أردنا أن نتخذ مثلا للكتابة فى القرن التاسع عشر نجد أن كتاب رضا قولى خان « سفار تنامهٔ خوارزم » خير مثل على النثر الفنى الفارسى حينذاك .

كانت خوارزم تابعة لإيران إلى حد ما ، وكان ملوكها يبعثون الهدايا و يدينون بالولاء للملوك القاچاريين ، وكان محمد أمين خان ، والى خوارزم ، قد أراد التقرب من محمد شاه القاچارى فبعث إليه بأمير من البيت المالك ، كان التركمان قد أسروه ، وأرسل معه رسولا من خيوه يحمل الهدايا وخطابا وديا للشاه حسب ما جرى به العرف بين البلدين . وسر محمد شاه لعودة قريبه الأسير ، ورحب بالهدايا التى بعثها إليه والى خيوه وابتهج بخطابه إليه ، ثم رد عليه رداً جميلا وخلع عليه لقب ملك خوارزم ( خوارزمشاه ) . ومات محمد شاه وخلفه ناصر الدين شاه فلم يرسل ملك خوارزم سفيره مهنئاً السلطان الجديد بولايته ، ولكنه بعد قليل علم بمقتل حسن خان سالار أحد زعماء ثورة خراسان ، فخشى أن يسترسل فى غيّه فيلقى

ما لقى صاحبه ، فبعث بضابطه آتانياز محرم يهدى ناصر الدين جياد الخيل والصقور . ورأى رجال السلطان أن الرسالة التى يحملها الرسول ليست معبرة عن صادق الولاء . ورأى الوزراء أن يوفدوا إلى خيوه سفيرا مثقفا ذا مركز ممتاز لكى يعبر لملكها عن استياء الحكومة الإيرانية من رسالته ، ولكى يستميل هذا الملك إلى إيران ويعيد الصلة بينه وبين الشاه إلى ما كانت عليه من ولاء وود وينتهز فرصة وجوده فيعمل على إطلاق سراح الرعايا الإيرانيين الذين كان التركمان قد اختطفوهم من خراسان ومازندران وباعوهم كما يباع العبيد فى خيوه .

واختارت الحكومة رضا قولى خان ؛ وأعطوه ألفى تومان[1] لنفقات رحلته ، وهدية للملك ، بندقية وغدارتين على أن يقدمهما كهدية شخصية .

وأدى رضا قولى خان سفارته وعاد فرفع إلى ناصر الدين شاه تقريرا عنها هو هذا الكتاب الذى نتحدث عنه ، سفارتنامۀ خوارزم .

وقد بدأ رضا كتابه بمدح السلطان ثم بيَّن كيف استعد لرحلته وأقام خارج بيته لإعداد ما يحتاج إليه ، وفقاً للرسم عندهم إذا قصدوا رحلة بعيدة ، ووصف مشاهد جبال البرز ودماوند والولاية التى سميت به إلى أن حدثنا عن لقائه لوالى خيوه خوارزمشاه ؛ محمد أمين خان :

*ذكر ملاقاة محمد أمين خان والحديث معه :*

« وقد ترامى إلى سمع الخان ما طلبتُ عن أسرى الإيرانيين فبعث فى طلب آتا نياز محرم ، رسوله الذى عاد معى من دار الخلافة ( طهران ) ، وكان فى ذلك الوقت قائما على معاملات كُهْنَه أُورْكنج . فجاء إلى خيوه ، وجعله ثالثنا ، وأخذ يستوضحه ما أشكل عليه . وبعد عدة أيام من مجىء محرم بعث فى طلبى محدداً موعداً لم أخبر به ، وكان العلماء والأمراء قد حضروا فى أبهى زينة ، وكنت مضطرب المزاج ولم يكن فى وسعى أن أذهب إلى هذا الجمع الحافل ، فاعتذرت بعلتى وقلت إننى لا أقدر على تلبية الدعوة فقد تجرعت مُسهلا ، وليس فى طاقتى العبور فضلا عن الحضور .

فجاءنى رسول آخر يقول إن خان الحضرة يعنى خوارزمشاه ينتظر حضوركم ، وإن أعيان المملكة يرمقون طريقكم . فقلت إنى غير مستعد وقد كان عليكم إخبارى بالأمس

(١) عملة فارسية .

إذا كنتم تريدون دعوتى اليوم ، ولو علمت لما تجرعت المسهل فإنى اليوم أجدنى غير قادر على الخروج وقد بدأت أشعر بأثر الدواء .

والخلاصة أن المجلس قد انفض ، وأنهم حملوا عذرى على الكبرياء و « التفرعن » والتجلل ورمونى بالجسارة وإساءة الأدب ، لأن حكم الملك فى هذه الولاية بمنزلة الوحى ، لا يخالف . ولكنهم سمحوا لى ، حين يتحسن حالى ويصح مزاجى ، أن ألتمس المقابلة .

وبعد بضعة أيام ، وكان الخان فى حديقة انگور نيك المشهورة بانگريك[1] ، التمست المقابلة وصحبت آتا نياز محرم . فلما دخلت حييت الخان فحيانى . وبدأ يسأل باللغة التركية وكان معه ترجمان ديلمى لأنه تظاهر بعدم فهم الفارسية ، فأنكرت معرفتى التركية لينقل الوسيط الحديث بيننا . فسألنى عن أيام اعتكافى وكيف أمضيتها . فقلت أمضيتها متراخيا محموماً ، ولم يكن لدى طبيب يداوينى والمدينة التى ليس بها طبيب هى عند الحكماء بعيدة عن التمدن ولا تروق لهم . قال فكيف برئت بعد سقم ؟ قلت بما دبرت لنفسى من دواء وافق قبول القضاء . قال : أفى إيران وطهران كثرة من الأطباء ؟ قلت نعم ، فى كل شارع ومحلة عيادات يطرقها أهل البلاد والغرباء فيصحون بعد مرض . ويتقاضى معظم أطباء هذه العيادات أجورهم من السلطان . ثم إن فى كل فوج من أفواج الجيش القاهر طبيبا ، يصاحب الفوج فى السفر والحضر . وهناك أطباء يعينهم الديوان الأعلى مهمتهم تسجيل أسماء الأطفال وإجراء ما يلزمهم لدفع مرض الجدرى عنهم ، حتى لا يصابوا بالعمى . فتعجب الخان من روايتى وتحير من انتظام الأمور فى إيران . قلت وأفواج الجيش مائة ألف لكل فوج طبيب . ومن هؤلاء الأطباء ميرزا على نقى الذى كان طبيب فوج الأفشار ، وهو اليوم فى خيوه لا يجد لنفسه عملا . »

وهكذا استثار رضا قولى خان فضول خوارزمشاه فسأله عن أفواج جيش إيران ، فأجابه السفير إجابة مفصلة حيرته . فقال الخان : لسنا بجاهلين أحوال إيران وسلاطين قاچار وقيزل باش ، ونحن نعرف أحوال بلادكم أيام فتح على شاه ومحمد شاه رحمهما الله . فأخذ رضا يبين له حالة الجيوش أيام هذين السلطانين وما هى عليه أيام ناصر الدين شاه من كثرة العَدد والعُدد الحديثة وحسن النظام والتناسق بين الضباط على مختلف رتبهم وبين الجند إلى أن قال :

---

(١) أى العنب الطيب .

« وقد علم رسولكم آتا نياز محرم بعض ما ذكرت ورأى ميدان المعسكر السلطانى الذى يحوى طابقين فى كل طابق أربعمائة غرفة لسكن الجند ، وأمام كل غرفة مدفعان مجهزان بأدواتهما من عرادات وبارود وذخيرة أخرى ، فإذا كنت لا تعتقد فى صحة ما أقول فسله يبين لك الصحيح من السقيم .

« وهناك اثنا عشر ألف رجل ، على عدد الأئمة الكرام ، يقيمون فى معسكرهم بدار الخلافة ويتدربون صباح مساء ، وينقدهم رجال القصر أجورهم كل شهر . ثم إنهم يسرحون بعد مدة ويحل محلهم غيرهم . أما هم فيعودون إلى بلادهم ويشتغلون بما يهيأ لهم من أعمال .

وقد كان الخان يسمع حديث السفير « وهو يتفكر ويتدبر ، وكان من فرط غيرته ونهاية حيرته يرفع يديه إلى صدره ويصيح ثلاث مرات « يا حافظ » . لقد ألجأه الفزع والجزع إلى الله الحفيظ » .

* * *

ويرفع الخان رأسه ويسأل السفير عن عمر السلطان فيقول السفير إنه ولد فى السادس من صفر سنة ١٢٤٦ ( ٢٨ يوليو ١٨٣٠ ) ، فهو فى الثانية والعشرين ، وإن المنجمين قد تنبأوا بأنه سيحكم أربعين سنة محاطا « بالحشمة » والجلال . فيقول الخان إن السلطان إذاً شاب جاهل . فيجيب السفير بأنه شاب كحظه السعيد وإنه ناضج الروح وله تجارب الشيخ الكامل ، وإنه ليس جاهلاً ، كغيره من الملوك ، فهو عالم بالفطرة وعقله هبة من الله . وهو من ناحية أخرى قد تحلى بالكمال صورة ومعنى وتخلى عن النقص ظاهراً وباطناً . وهو منذ ألقى إليه بعبء الملك قد صرف الهمة إلى الطاعة والعبادة فهو يتضرع إلى ربه ويخشع . وفى كل ليلة ، بعد تلاوة الأوراد والأذكار ، توقد فى غرفته الشموع المنصوبة على عمد مطعمة بالجواهر ، فليحترق بها أعداؤه كما يحرق الفراش حول النار ، وتوضع أمامه كتب الأخبار والأحاديث ودفاتر القصص والتواريخ . فينفذ بصره إليها ويتأمل فيها ، ويفيد من سير الأولين حكمة وعلما ؛ وهو يشتغل بدراسة أحوال الأقاليم السبعة فهو يعرف عن ديار الفرنج والروم والروس والهند وتوران أكثر مما يعرف أهل هذه البلاد . وقد كان يدل سفيره قبل سفره على

الطريق الذى يسلكه مبينا له المنازل التى فيها الماء الحلو والأخرى التى لا يشرب ماؤها ، فلما اجتاز السفير الطريق رأى صحة حديث السلطان .

وكان الخان يتأثر بهذا الحديث ويصيح : التوبة التوبة ، والحفيظ الحفيظ .

وبعد أن يتحدث رضا عن ناصر الدين شاه وبأنه أشرف ملوك الأرض طرا ، وأنه أكثر أصالة ممن تقدمه من آل قاچار ، لأنه ملكى النسب من ناحيتى أمه وأبيه ، ينتقل الحديث إلى المغارة بين خوارزمشاه والسلطان .

قال ملك خيوه إنه بعث آتا نياز محرم سفيراً إلى طهران كى يحمل إلى السلطان إخلاصه وصداقته ؛ وكذلك بعث السلطان رضا قولى إلى خوارزم سفيرا ؛ وفى هذه الأثناء يرى خوارزمشاه جيوش إيران تسير نحو سرخس واستراباد وهذا لا يتفق والشعور بالصداقة بين حاكمين .

فأجاب رضا بأن سير هذا الجيش يهدف إلى إقرار الأمن عند الحدود وإلى رفع غائلة التركمان . « وهذه التعبئة لا تمس بلادك ولا من يخضع لك من القبائل » . وأما بلوغ النواب حسام السلطنة سرخس « فإنه واضح أن هذا البلد لا يدين لك بالولاء ، مثله كمثل مرو ، وأنهما أصبحا بؤرة للفتن . ولو عُرف أن أهل سرخس من رعاياك لما سار إليهم أحد . ومن ناحية أخرى فإن هذه الحملة لم تُسَيَّر بأمر وزراء إيران ، إنما أقدم عليها حسام السلطنة بإلحاح خواتين خراسان . والدليل على أن الشاهنشاه لا يعرف أمر هذه الحملة أنكم حين عرضتم سحب جندكم إذا انسحب عسكر حسام السلطنة ، قبل هذا أن ينسحب . ولو كان يستمد الأمر فى هذه الغزوة من السلطان ، « روحنا فداه » ، لما تراجع بهذه السهولة .

ثم يقول رضا : وحين سار حسام السلطنة نحو سرخس لم ينم أهل خوارزم ليلهم . . . ولو لم يكن هناك مراعاة للمصافاة والصداقة من قبل السلطان « روحنا فداه » لدخل الجند سرخس بإشارة واحدة .. ولجعلوا عاليها سافلها . ثم يحدث الخان عن الوضع السياسى لخوارزم فهى من ناحية عرضة لغارات أهالى بخارا ومرو وهراة ، وهى من ناحية أخرى عرضة لغارات الروس . ثم ينبهه إلى أن حدود خوارزم قريبة من استراباد وبقية الحدود تلتقى عند دره كز وخراسان ؛ وينصح الخان أن يتفكر فيما هو أجدى عليه . فمن الذى يستطيع عونه

إذا أعوزه المدد ؟ ويقول له إذا رأيت حكومة أجنبية تعرض عليك صداقتها فاعلم أنها تقدم إليك ما يتفق مع مصلحتها . والدولة التى هى أقرب إليك صديقة لأمير بخارا وهو عدوك ، وأقرب دولة إلى بخارا تتودد إليك وهى لا ترجو غير مصلحتها وضرب المسلمين بعضهم ببعض . مصراع .

من أى طرف يكون القتل (قتل الكفار) فالفائدة للإسلام

« إن من بيدهم الأمر فى بلدك لا يفكرون فى واجبهم ، ولا ينظرون إلى خير الدولة ، وهم يبذرون بين المسلمين الشقاق والنفاق حتى أصبحوا فى عين المسلمين لا يساوون حبة شعير . إن أهل إيران يسافرون إلى كل أمة ، من ترك وروس وهند وفرنج ، يذهبون ويعيشون أعزاء ويعودون بالعافية ، إلا فى بلادكم فإنهم ينهبون ويفتح رجالك أبواب الإيذاء والإجرام فى وجوه أهل القبلة . وذلك مع أن لنا قرآنا واحدا وقبلة واحدة ورسولا واحدا وإلهاً واحداً ، ولم يأت فى آية أو حديث شىء مما تفعلون » .

فأجاب الخان بأن علماء الدين فى بلده يقولون إن سب الشيخين (أبى بكر وعمر) كفر ، وجزاء الكافر معلوم . وقد ابتدع أهل إيران البدع وسبوا أكابر الصحابة وامنوهم ، ولذا فهم ، بفتوى المفتين فى بخارا وخوارزم ، روافض كفرة ، فلزم أخذ أموالهم ونهبها ثم لزم أسرهم .

فأجاب رضا قولى :

إننى من رجال بلاط ملك إيران وأتحدث بلسان الدولة . إنما تكون الأسئلة والأجوبة فى أمور الدين مع علماء المذهب ، وليس لى دراية كبيرة بهذا البحث . فإذا كان المقصود تحقيق المذهب والبحث فيه لوجب بعث أحد القضاة أو المفتين . والواقع أن الحديث فى هذا الموضوع قد دام سنوات وتبودلت فيه ، بين الطرفين ، الرسائل والمقالات والكتب والخطابات ولم ينتج هذا كله شيئاً . مصراع .

هذا خيط بعيد الطرف

وبعد أن تحدث رضا عن مذهب الفرس أيام الخلفاء وأنهم كانوا من أهل السنة والجماعة ، وذكر الحرب بين علىّ ومعاوية ثم مقتل الحسين وقال إن هذا أوضح من

الشمس ، وبعد أن تحدث عن العباسيين وكيف اضطهدوا أئمة الهدى علنا وخفية قال :

« وإذاً فقد كان بين الخلفاء خلاف ، ولم يكن العباسيون متفقين مع الأمويين فى الرأى ، ومع هذا فإن أهل السنة والجماعة قد اعترفوا بهم جميعاً وبأنهم أولو الأمر وخلفاء الله ورسوله .

وأما السب والرفض فقد صدر أولا عن معاوية وبنى أمية فى حق حضرة أمير المؤمنين أسد الله الغالب ، فقد سبوه ولعنوه من فوق المنابر سبعين سنة ، حتى منع عمر بن عبد العزيز هذا السب . ثم كثرت المذاهب كما هو موضح فى الملل والنحل . ظهر الخوارج والمعتزلة والأشعرية وطائفة الزيدية والإسماعيلية والأفطحية . ووجد الإمامية أن « الأمور خراب وأن البحار سراب » فعملوا بالحديث : « مثل أهل بيتى كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق » . فركبوا سفينة الولاء لأهل البيت كى ينجوا من طوفان الخلاف .

أما قصة الرفض والسب فكانت فى قديم الأيام وخاصة أيام الدولة الصفوية ، فقد برزت وظهرت حتى حرّمها نادر شاه الأفشارى فزالت هذه البدعة من بين المسلمين . وجاء من بعده السلاطين الألوارية ( الزند ) ولم يكن لديهم علم بما يدور ، فمالى جهلاء العلماء فى هذا الأمر . ومع ما كان يبديه حضرة الخاقان صاحب القران نوّر الله مرقده ( فتح على شاه ) من حب علماء الدين وتشجيعهم فإنه منع بعض قواعد الرفض .

وجاء محمد شاه طاب ثراه فأمر أمراً نافذاً بتحريمه .

وفى عهد هذا السلطان حامى الإسلام ( ناصر الدين شاه ) لا يجرؤ أحد أن يقول مثل هذا القول الواهى وإذا أطلق أحد لسانه بالتشنيع على الخلفاء فإن رأسه يقطع » .

قال الخان وقد أعجبته سيرة آل قاجار فى هـذا الموضوع : « إذا كان الأمر كذلك فهو خير » .

ويسأل الخان فيقول : إن سبب عداوتنا لأهالى إيران هو اتهامنا لهم بالرفض والسب فما سبب عداء القزلباش لنا ؟ فأجاب رضا : إنه كما قيل لكم إن أغلب الإيرانيين رافضة فاتخذتموهم أعداء لكم فكذلك قيل لأهالى إيران إنكم وأهل ولايتكم لا تحبون أمير المؤمنين أسد الله الغالب على بن أبى طالب وأولاده الأمجاد .

فقال الخان : نعوذ بالله أن نكره عليا ، إنا نقرّ بأنه رابع الخلفاء وأعلمهم ، ولو أخذوا

بمشورته وعملوا برأيه لما نشب بينهم خلاف . وإن ذكر الخلافة والخلفاء مشروح بالتفصيل في روضة الصفا .

فانتهز السفير هذه الفرصة ليشرح المذهب الديني في إيران ومذاهب الغلاة التي بها وهي المذاهب التي لا يقرها أهل الرأى في الدولة ، ولكنهم يغضون العين عما تقول به لأنهم يستغلون غلو أهلها في التشيع لعلى وآله وبغضهم الشديد لأهل السنة فتتخذ الدولة منهم جنودها كلما دعا الأمر لقتال الترك أو التركمان السنيين ، قال :

لقد ولدتُ في إقليم فارس وشببت فيه ، وتنقلت في سواحله وبنادره وبها نحو ثلاثين ألف نفس على مذهب الشافعي ، وكذلك يكثر أهل السنة والجماعة في لارستان وسائر أنحاء فارس ، وهم يعيشون في سلم وهدوء تامين ، وقد عشت بينهم على عقيدتي وما أحببت بحث موضوع المذاهب .

وفي إيران طائفة تسمى الإمامية ، وهي على حقٍ فيما تذهب إليه ، ويفحم علماؤها علماء أهل السنة كلما تناظروا . وهم يقولون إن النبي ، وهو في مرض الموت ، طلب دواة وقرطاسا ليكتب وصيته حتى لا تضل الأمة من بعده ، فمنعه عمر بن الخطاب منعاً صريحاً . وهذا أمر مشهور . ثم إنهم يقولون إذا كان عمر مخلصاً لرسول الله (صلعم) فلماذا تركه ميتا وجرى إلى سقيفة بني ساعدة وأخذ يحمل الناس على اختياره خليفة . وأكثر من هذا فإن الخلافة إذا كانت بالوصية فإن الرسول (صلعم) قد أوصى بعلى من بعده في غدير خم ، فلماذا لم ينكروه منها ؟ وإذا كانت بإجماع العامة فلماذا عدل أبو بكر عن الإجماع وأوصى بأن يكون عمر خليفة من بعده ؟ وإذا كانت الوصية هي الوسيلة للخلافة فلماذا عدل عمر عن الوصية وعن الإجماع وأمر بالشورى في أمر من يولى بعده ؟ وفي إيران مثل مشهور يقول باستحالة وجود جَوْزَتَيْن على سقف واحد ؛ وهكذا تجد على هذا السقف أهواء كثيرة .

وطائفة الإمامية هذه ترى النجاة في حب الرسول وآله ويقولون بالأئمة الإثني عشر ويسيرون وفق آيات القرآن والحديث وفيهم زهاد وعبّاد وعلماء وفضلاء كثيرون .

فلما سمع الخان هذا البيان تفكر قليلا ثم قال : إنهم يعجبون بعليّ .

قلتُ :

وفي إيران طائفة غلوا في الولاء لعليّ وفضلوه على الخلفاء الثلاثة ويسمون بالمفضلية .

وطائفة أخرى جعلت عليا فى مرتبة واحدة مع الرسول (صلعم) ولا تفرق بينهما إلا بما بين النبوة والولاية من فرق .

فقال الخان : إن اعتقادهم عجيب .

قلت :

وطائفة أخرى تجعل من علىّ إلها وتسميه موجد الكل .

فغضب خان خوارزم ، وقال : نعوذ بالله من هذا الاعتقاد الفاسد ، إن هذه الطائفة كافرة ، فلماذا لا يقضى ملك الإسلام بقتلها .

قلت :

إنهم لا يجهرون بعقيدتهم وهم يوافقون المسلمين فى الظاهر . ثم إن لهم أتباعا فى سائر البلاد . وهم فى إيران كثيرون فهم أكثر من مائة ألف أسرة وغالبهم يشتغل فى الديوان وعند السلطان و بعضهم فرسان ، ومنهم عشرون أو ثلاثون ألفا موظفون فى الدولة ، وآخرون يعملون فى الجيش كمشاة . فكلما أشار السلطان ذو الجاه بأن تحارب هذه الطائفة أهل الروم (الترك) أو أهل بخارا أو التركمان ، فإنهم يقدمون بشوق ما بعده شوق ، وعداوة لا توصف ، على حرب أهل السنة ، لأنهم يرون فى قتلهم ثوابا عظيما و يستحلون دماءهم ، وذلك من غير أن ينتقدم السلطان أجراً أو يجرى عليهم شيئاً .

فثارت من ذلك أوهام الخان واضطرب خاطره فوضع يده على صدره فى غير وعى وأخذ يكرر : التوبة التوبة والحفيظ الحفيظ ، وقال :

لماذا لا يأمر سلطان إيران بإهلاك هؤلاء القوم و إبادتهم ؟

قلت : إن قتل مائة ألف من رعاياه وخدمه ليس أمرا يسيرا . وهو يبعث فى البلاد فتنة عظيمة . ثم قلت :

وفى إيران أناس على كل الملل ، من النصارى واليهود والمجوس والهنود . ولهم فى كل مدينة شوارعهم و بيوتهم ومعابدهم وكنائسهم ، وهم يعملون بتعاليم أديانهم و يدفعون الجزية . ولهذا إذا سمعتم أن فى إيران جماعة من الرافضة فاعلموا أن أهل إيران جميعا ليسوا من هذه الفرقة ، ففى إيران كثير من كل الملل والنحل . بيت

ليس فى الطوق قتل الناس ولا فى المكنة القضاء على العالم .

ثم أخذ الخان يسأل السفير عن مذهب الخوارج ، واستطرد السفير فحدثه عن الخلفاء الإسماعيلية فى مصر والمغرب ومحاربتهم للعباسيين ثم حدثه عن ملاحدة قوهستان وعن البابية والقضاء عليهم .

وقد انتهى هذا الحديث بإعجاب الخان بالسفير وودّ لو استطاع أن يبقيه فى بلاطه لتفيد منه البلاد فى أمور الدين والدنيا . ثم أخذ يسأله عن طرق خوارزم وعن الأولياء الذين زار قبورهم ، وكان رضا يجيبه ويقرأ عليه بعض أشعار للشيخ نجم الدين كبرى الذى زار قبره . فقال الخان إنه لم يأت إلى خيوه سفير كهذا الرجل ... ثم شكره لأنه أزال ما علق بنفسه من سوء الظن بالمذهب الذى يتبعه الإيرانيون وسأله أن يتحدث فى بلاده بما يرفع الشبهة فى أهل خوارزم « قل لهم إنا مسلمون نسير على جادة السنة والجماعة ، وأن الغلو الذى هو من جملة البدع التى لا نفع فيها محرّم فى ولايتنا وإنا لا نعاقب أو نقتل النفس بغير إجازة الشرع وفتوى القاضى ، وإنا مخلصون لأمير المؤمنين علىّ كرّم الله وجهه ولأولاده » .

وانتقل الحديث بين الخان والسفير عن أسر الإيرانيين فتنصل الخان من تبعته ... ثم طلب السفير أن يعيد الخان هؤلاء الأسرى إلى إيران كهدية منه إلى السلطان . فإن الاصطبلات السلطانية مملوءة بأحسن الخيول التركية ، وكذلك حوت خزائنه كل ما يشتهى ، فإهداء رعاياه الأسرى خير ما يهدى إليه . وحين سأل الخان عن طريقة استرداد هؤلاء الأسرى ممن اشتروهم من الفلاحين ( البخارا ) أجابه السفير بأن يشتريهم بنقد من عنده وأن لا ينظر إلى نفع أو ضرر فإن السلطان قادر إذا أزم الخان أمر أن يعينه بعشرة آلاف أو عشرين أو ثلاثين ألفا من جنده ، وأنه قادر على أن يخضع مدينة مرو وينزل له عنها . « وكذلك طلبتم أن ينسحب النواب حسام السلطنة عن سرخس ففعل ، وما هرع اليكم أهل سرخس إلا لخشيتهم جنود إيران » .

فاقتنع الخان بما قال السفير ووعد بأن يزداد صلة بآل قاچار فقد جاملوه فى سرخس . وأجاب السفير إلى طلبه .

* * *

وقد ذكر رضا قولى خان فى كتابه ما لقيه فى الطريق ، فوصف المزارات التى زارها وذكر أشعار أصحابها إذا كانوا شعراء فمن ذلك وصفه لقبر الشيخ نجم الدين كبرى ، ولقبر فخر الدين أبى عبد الله القرشى التميمى البكرى ، وقد ذكر بعض رباعيات لهما . وذكر كيفية تولية الخان عرش بلاده ، فإنه حين يموت الخان يحضر القضاة والعلماء والأمراء والوزراء للتعزية ثم يختارون ابنه الأرشد لبلى العرش ، فيظهر هذا الاجتناب والاستغناء فيلحون عليه حتى يقبل ما داموا مجمعين على اختياره وخاضعين لأمره حتى لو كان بالقتل . ثم يأتون ببساط أبيض و يضعونه فى وسطه ثم يرفعونه وقد أمسكوا بأطرافه و يلقون الخان الجديد على العرش بقوة ، فيقع على وجهه أو تسقط عمامته . وحينئذ يقطع كل منهم بسكين معه قطعة من هذا البساط و يأخذها معه .

ويتحدث عن الجيش وطريقة جمعه وصلة الخان بملازميه ، ويقول إن الرقيق من الإيرانيين فى خوارزم أكثر من أهلها ، وقد رأى عند أحد الأزبكيين خمسين رقيقا من الإيرانيين . قال ولو وجد هؤلاء تأييداً من حكومة إيران لثاروا ضد سادتهم .

و يصف ما لقيه من مصاعب فى الطريق :

« وكنا نسمع فى مسيرنا بثورة يموت[1] وقيامهم بثورة على حاكم استراباد ، وشاع وتواتر أنهم ينتظروننا ليمنعونا من السفر و يأسرونا ، ولذا رأيت من الحزم أن لا أبعث أمامنا رسولا إلى بكلربكى ، فإن التركمان سيعلمون من ذلك يوم مجيئنا فيسرعون إلينا . و بعد أن اقتربنا من نهر إترك ، حيث يسكن غالب التراكمة ، وهم يعيشون على قطع الطريق والغارات ، تناولنا العشاء ورأينا أنه لا يجدر بنا أن ننام . فلما انقضى من الليل ساعتان أوثلاث عزمت على عبر نهر إترك مع رفاقى ومن صاحبونى فى السفر ، وذلك بغية الوصول إلى جرجان واستراباد . فلم نكد نسير فى الطريق قليلا حتى ظهرت آثار سنابك الخيل كثيرة ، فدلت على أنهم جاءوا من حولنا ومضوا . فبدا لكل منا ظنٌ فقال ما أراد . وخطر لى من القرائن الخارجية والدلائل العقلية والسمعية المتواترة أن تراكمة إترك الثائرين قد خال لهم أن يأسرونى ، فوجب أن نسير فى طريق غير مألوف من حول منازل هذه الطائفة . فلما بلغنا نهر إترك كانت ضوضاء أهل القافلة من بخارى وخيوق ( نسبة إلى

(١) اسم قبيلة .

خيوق أو خيوه ) وكابلى وهدير الجمال وصهيل الخيل وغلغلة الحضور ، كل هذا كان له فى الجبل والنهر صدى أى صدى . وعلى أى حال فقد سرنا فى الطريق الأيسر وكانت أرضه ملحة وولينا من هـذا المكان المخوف ولو أن كل هذه المسالك خطرة مفزعة ، متوكلين على الله ، وقصدنا جرجان واستراباد » .

وكان قد عرف زعيم يموت ، آتاباى قراخان ، وتعرف عنده بالأمراء والقاضى فرأى أن ينزل عند واحد منهم ، وكان يجهل ما يجرى فى استراباد . وفى هذه الأثناء قابله رجل فأنبأه بأن بكار بكى قد قبض على قراخان وأن أمامهم ألفين من الثوار يسيرون لتخريب جسر نهر جرجان . « فبهت رسول الخان ومن معى وتحيروا جميعا . فقال أحدهم إن الأولى أن نسير فى الطريق الأيسر لأنه غير مطروق فأمامنا فرسان سيلاقوننا ، وأن دردى قولى خان قـد ألقى خيامه هناك وإنه سيسعد بورودنا مخيمه ، وإذا ألجأتنا الضرورة فإنه يصحبنا وفرسانه إلى استراباد .

ولاحت لنا من بعيد خيام وسرادقات فاتجهنا نحوها وحثثنا السير اليها ، عبثا ، لقد ظننا السراب ماء والقطران كافورا عبثا ، فبعثنا من لدنا رسولا يستطلع الخبر فعاد يخبرنا بأن الخيام ليست لدردى قولى خان ولـكنها خيام يَلَقاى . وكان العرف عند التراكمة أن من يفد عليهم من عدوهم فهو آمن ولم يكن بد من التقدم نحوهم ، بين اليأس والأمل ، وترجلنا . فأحضروا لنا خبزا وأكرمونا . وكان من بينهم كثير من الأسرى ، من أهل اردو ( إيرانيين ) ... وآثرنا الرحيل على المـكث ، ولمـا ابتعدنا مرحلتين أو ثلاثا وجدنا أنهم سرقوا بندقية محمد شريف باى فى الفترة القصيرة التى توقفنا فيها عندهم ، وأنهم أنبأوا الأعداء بأمرنا » .

وسار رضا قولى خان فرأى هذه القبيلة من ورائه تسير ، تبغى سرقته وتدعى حراسته : وفجأة قام عليهم التركمان الأعداء وأرادوا أن يأسروه فقاتلهم ثم جمع أمره ورجاله واستعدوا للقتال من جديد ، حتى إذا جن الليل تدبر موقفه فرأى القوم لم يناموا ليلتين وأن الطعام نفد وليس فى جرارهم ماء ، وأبصر فوجد أهـل القافلة يتطلعون اليه وقد ترقرق الدمع فى أعينهم وأنه هو سبب هذا البلاء كله فأخذ يفكر فى أن يسلم نفسه أسيراً ، ويكفى الله المؤمنين القتال . ولـكنه كان قلقاً ، فإن الحـكومة الإيرانية ستبحث عن سفيرها وتنقذه من الأسر

كى تدفع الإهانة التى لحقتها بالعدوان عليه . ولكنه يخشى أهل السوء من الحكام ، فمنهم من لم يكن راضيا بسفارته هذه ؛ وإذاً فقد تعدل الحكومة عن البحث عنه وتتركه يلقى ذل الأسر وهوان الرق بحجة أنه لم يكن موفقا فى سفارته بل إنه زاد الأمور تعقيداً . أخذ يفكر فى هذا كله وهو متعب مضنى ، وقد جلس بين الجمال يتفكر ويتدبر ويترقب . وإذا بالقاضى الذى لقيه عند قراخان يحضر إليه ويعرض المساعدة ، ويتصل أمره بزعماء القبائل ويُنقذ ومن معه ويبلغ استراباد .

* * *

وقد انتهى أمر خان خوارزم بالقتل وعاد من سلم من رجاله إلى خوارزم ، أما رأس خان فقد حمل إلى طهران . ويختتم رضا قولى خان رسالته فيقول ناظماً :

شاع النواح والأنين فى خوارزم كلها .
وترددت الآهات والبكاء فى كركانج .
إن تركستان تغط بالحسرات كأنها جيحون ،
كلها ، من بخارى حتى فرخار .
أناتهم (باردة) كرياح آذر (نوفمبر — ديسمبر) ،
وعيونهم (مشبعة بالدمع) كسحاب آزار (مارس) .
إنهم كالبوم فى الخراب الشوم ،
قد أضناهم فرط الألم .
وقد تذلل الصعب من هذا الأمر ،
من تخت كسرى وتدبير الدستور .[1]

**القائمقام :**

وهو الشاعر الذى تحدثنا عنه فى آخر فصل الشعر . والذى امتاز برسائله التى كتبها أثناء وزارته لفتح على شاه ومنها رسالته المشهورة التى بعث بها هـذا السلطان إلى قيصر روسيا

(١) بمعنى الوزير .

معتذراً عن قتل الإيرانيين البعثة السياسية الروسية فى إيران ، وقد بعث بهذه الرسالة مع ولى عهده عباس ميرزا نائب السلطنة . قال فيها :

« وقد بينا فى كتاب صادق ، مرقوم ومعلوم ، مفاجأة هذا الحادث ، وأن أمناء الدولة لم يعرفوا من أمره شيئاً . وثانيا فإنه لما بين هاتين الدولتين البالغتين السماء علوا ، من الوحدة التامة والوفاق فقد أخذنا على عاتقنا أن نثأر لهذه البعثة فأوقعنا الجزاء على كل من لحقته أدنى شبهة من أهل هذا البلد فى المشاركة فى هذا الجرم القبيح والإثم الشنيع ، بالزجر والحد والإخراج من البلد . وأخذنا محافظ المدينة وعمدتها بأنهما علما بالحادث متأخرين ، ولأنهما لم يحكما الأمر فى المدينة قبل وقوعه ، فعاقبناهما بالعزل والتعزير . وأكثر من هذا فإنا عاقبنا ميرزا مسيح ، مع ما بلغ فى دين الإسلام من مرتبة « المجتهد » ، وهو قدوة الخاصة والعامة ، وذلك لأن أهل المدينة كانوا ملتفين حوله فى المجلس وقت اغتيال البعثة . ولقد عملنا بما بين الدولتين من اتحاد ، فلم نعف أو نغمض العين ولم نقبل أى شفاعة أو وساطة من أجله . وإذ رأينا لزاما علينا أن ننبئ الأخ الطيب السيرة فقد حررنا هذا الكتاب معبرا عما نكنه من الصداقة ، وتركنا التفصيل لولدنا المؤيد الموفق نائب السلطنة عباس ميرزا . آملين من أعتاب الله أن يسدد وداد هاتين الدولتين الأبديتى البناء ، نحو الترقى والازدهار ، وأن تتصل روابط الصداقة والإخاء بين الحضرتين وأن يتأكد بعث الرسل وتبادل الرسائل ويتضاعفا والعاقبة بالعافية .

وأكتفى بهذا القدر عن الكتابة وأنتقل إلى القصص .

## القصـــص

وليس القصص جديداً فى الأدب الفارسى ، فمنذ زمن بعيد والإيرانيون يعنون بالعاشر من محرم ويذكرون فيه قصة الحسين ويبكون ، ومنذ زمن بعيد أيضاً والفرس يعنون بالتاريخ القصصى ويأخذون فى هذا من كتب سابقة على الإسلام وهى كتب « خداوند نامه » أى سير الملوك ، ونظم الشعراء قصصاً مأخوذاً عن اللغة اليونانية ، مباشرة أو بالواسطة ، كقصة سلامان وأبسال التى ذكرت فى الجزء السابق من قصة الأدب ، كما نظموا قصصاً دينيا

كيوسف وزليخة ، هذا عدا الحكايات التى قصد بها ضرب المثل فى الأخلاق .

ولكن القصص الايرانى فى القرن التاسع عشر أخذ طابعاً جديدا . فإن الأدبيات الفرنسية ومعظمها قصصى ، قد نقل إلى اللغة الإيرانية ، فقرأ الأدباء قصصا لموليير وڤولتير وغيرهما ، وأراد البعض أن يأخذ موضوعا اجتماعيا ويضع عنه قصة على المنوال الذى رآه عند أدباء أوربا . ومن هـذا القبيل ما نشر باللغة الإيرانية من قصص ، وقد ظهرت هذه القصص أولا فى آذربيجان ، باللهجة الآذرية ، ثم نقلت إلى الإيرانية ونشرت فى طهران سنة ١٨٧٤ ، فى مجلد يحوى سبعا منها .

ولست فى حاجة إلى تلخيص كل هذه القصص . وحسبى أن أذكر فكرة عن واحدة منها لنرى طريقة التفكير والهدف الذى يرمى إليه الكاتب ، وقد اخترت قصة الملا ابراهيم خليل الكيماوى .

وقد قصد مؤلف القصة ، ميرزا فتح على دربندى ، إلى محاربة فكرة استخراج الذهب والفضة من النحاس ، وكانت شائعة فى إيران فى ذلك الوقت ، شيوعها فى مصر و بلاد الشرق عامة . وكانت هـذه الصناعة قائمة على الدجل والاستخفاف بعقول الناس وابتزاز أموالهم . فأخذ المؤلف الفكرة وجعل روايته فى أربعة فصول :

قصة الكيماوى :

— ١ —

يجرى المنظر الأول فى بيت الحاج كريم الصائغ ، وقد دعا إلى بيته جماعة من أصدقائه ليتعارفوا إلى الشيخ صالح . وكان الحاضرون من الطبقة الوسطى فى إيران فمنهم من كان أبوه من رجال الدين (مُلاّ) فأخذ عن أبيه وقار المظهر ، ومنهم طبيب يعتمد على ضياع زوجه ، ومنهم رجل من الملاك . فلما اجتمعوا دخل عليهم شاعر لم يكن رب الدار دعاه ، هو الشاعر نورى ، ولكنهم رحبوا به فدخل وجلس بينهم .

وأخذوا يتحدثون عن الملا إبراهيم الخليل وكيف يجعل النحاس فضة و يبدل فقر الناس غنى ، ويضاعف لهم الثراء مرات . فأخذ كل منهم يتفكر فى كيفية الحصول على أكبر قدر

ممكن من النحاس ، ليصيره الكيماوى إكسيره فضة براقة .

وقال ابن الملا ، الوقور ، إنه يعرف رجلاً يقرضهم من المال ما يشتهون ويتقاضى فائدة قدرها ١٢ فى المائة واسمه الحاج رحيم ، فاطمأن الجمع وأخذوا يتزايدون فى القرض الذى يطلبون .

وفى هذه الأثناء يبلغ ضجر الشاعر أقصاه ، فينبرى فجأة إلى قراءة قصيدة كتبها فى غزوة حدثت منذ ستين عاما . ويغضب الحاضرون ، ويطلب المضيف من الشاعر أن يطوى الشعر فليس هذا أوانه ، ويدافع الشاعر بشاعريته عن القصيدة ؛ فيحدثه المضيف عن الكيمياء والإكسير والثراء فينكر الشاعر هذا القول ويرفع الصوت قائلا إن مهنة كل رجل هى إكسيره ، وهى الوسيلة لعيشه . وأخذ يبين عيوب الحاج إبراهيم الخليل ويكشف عن خداعه ؛ وعاب على الشيخ صالح قسمه بأنه رأى الكيماوى بعينيه وهو يصير النحاس ذهبا .

ويهزأ الحاضرون بقول الشاعر ويسأله كل منهم عن عجز الإكسير الذى له عن أن يهيئ له الحياة الهادئة .

أما الصائغ فيسأل الشاعر كيف ينكر وجود الإكسير الساحر ، ويأخذ عليه قوله إن مهنة كل رجل هى إكسيره ، قائلا إنى صائغ وأعجز عن كسب ما يفى بنفقات بيتى اليومية فأين إكسيرى ؟

ويجيب الشاعر بأن الصائغ لم يتحر الأمانة فى صناعته وأنه كان يبدل الذهب الذى يعهد إليه به بالنحاس والقصدير ، فكشف الناس زيفه وولوا عنه ، فكسد سوقه ، ولو كان أميناً لأثرى من صناعته .

فيسأله الطبيب عن التضييق فى رزقه ؟

فيقول الشاعر : إنك تركت مهنتك وامتهنت ما ليس لك به علم . لقد كان أبوك حلاقاً بارعاً فجمع من صناعته ثروة . ولقد ربّاك ونشأك لتخلفه فى مهنته ولكنك آثرت اتباع طريقة حلاق تفليس ، فاشتغلت بالطب ولا دراية لك به ، فقتلت من الأنفس ما قتلت فانصرف الناس عنك . وها أنت نسيت حرفتك الأولى ولم تفلح فى الحرفة الثانية .

وهنا يسرع الرجل الوقور ، ابن الملا ويقول لو صح قولك لكنت أنا « قارون » ، وها أنت ترانى لا أملك شروى نقير .

فيقول الشاعر : إن لك من صحتك و بنيانك ما يؤهلك لأن تكون مكاريا ، ولكنك رأيت أباك « ملاّ » فاخترت أن تكون « ملاّ » مثله . ولقد كان أبوك مجدا فى التحصيل قادرا على الإفادة من القراءة فكان من حقه أن يكون « ملا » . أما أنت فتجهل كتابة اسمك فكيف تتعلم ثم تعلم . لقد حسبت كفاءة العلم كهذا الثوب من الفراء الذى ورثته عن أبيك ، فلم تلق من الناس تقديراً ، ولو عملت على كسب قوتك مما وهبك الله من بسطة فى الجسم وقوة وعملت مكاريا لكسبت فى حياتك ما يكفيك و يغنيك .

فانبرى صاحب الأملاك يسأله عما حال دون ثرائه .

فقال الشاعر : كان عليك أن تنمى ثروتك بمراعاة زرعك وحصادك ، ولكنك قضيت وقتك فى سخف الحديث ، و إنك لتقدم على أمر فلا تتمه وتنصرف إلى سواه ، تغتاب الناس وتثقل على الحكام بما تبذل من وساطة لحماية أهل السوء و إيذاء الأبرياء . وقد آل أمرك ، لسوء سيرتك ، إلى الحبس ثلاث سنوات ، فبذلت من أموالك لتفك قيدك ، أتريد أن تنفق من رأس مالك ثلاث سنوات وأن تزداد ثروتك و ينمو دخلك ! وها أنت تبحث عن الثراء عن طريق الاستدانة وتبديل النحاس . مثلك كمثل مشهدى الجبار ، التاجر الذى دفعه حرصه على جمع المال ، إلى أن يقرض الناس بالربا الفاحش ليصبح من ذوى الثراء ، هيهات له اليوم أن يسترد ما قدّم للناس .

وهنا يصيح الصائغ و يسأل الحاج نورى الشاعر ، بأنه وقد بين عيوب الحاضرين جميعاً وانصراف كل منهم عن الطريق السوى للعيش الهادئ الناعم ، أن يبين لهم سر فقره وأنه إذا حصل على العشاء لا يجد ما يفطر به . فأين الإكسير والشاعرية فى برجها لم تضل ؟

فيقول الشاعر : إن شاعريتى هى إكسيرى فى الحياة . ولكنها كهذا الإكسير الذى تتحدثون عنه يلزمها المعدن الذى تتجلى عليه . والمعدن عندى هم الرجال الذين يستمعون إلى الشعر و يقدرونه و يكافئون الشاعر على إبداعه فإذا كان الناس من أمثالكم فهل تريد لهذه الشاعرية أن تسد حاجتى وتسعدنى كما سعد الشعراء من قبل ؟

وصاح الجميع بالشاعر وطردوه فخرج وهو يطوى القصيدة ، ويقول : إن قول الحق مر .

واتفق الحاضرون على تهيئة النقد النحاسى واقتراضه من الحاج رحيم والذهاب إلى الملا إبراهيم الخليل .

— ٢ —

وينتقل المنظر الثانى إلى تل تبدو فيه الطبيعة وقد بلغت غاية الجمال ، وهناك خيمتان ، وعلى بعد قليل منهما كوخ من الخشب يرى فى داخله موقد كبير ، وبجانبه كور وسبائك نحاس متكتلة . وأمام الخيمتين خيمة ثالثة صغيرة . أما الخيم فواحدة لسكن الملا خليل إبراهيم ، والثانية لمساعده الملا حميد ، والثالثة للخادم الدرويش عباس ، وقد امتلأت بالأدوات والعدد .

وكان الكيماوى يعلم بمجىء الجماعة فى هذا اليوم فاتفق مع مساعده على أن يقابلهم وأن يخبرهم أن الفضة قد بيعت ، وأن الدفعة التالية قد وُعد بها جماعة أخرى ، وأنه لا يُقبل منهم نحاس قبل ثلاثين يوما . فإذا طلبوا مقابلة الكيماوى فعلى المساعد أن يخبرهم أنه معتكف ثلاثة أيام يصلى فيها ويدعو ربه ولا يقابل أحدا .

ويحضر الجماعة فى المساء فيخبرهم المساعد بما اتفق عليه مع الكيماوى ، ولكنهم ينتظرون .

وفى هذه اللحظة يخرج الدرويش عباس من خيمته ، وهو شاب فى الثلاثين من عمره أصفر الوجه ، يتدلى شعره على كتفيه ، وقد أطلق لحيته وحلق شاربه ، ولبس فوق رأسه طرطور الدراويش ، وظهره مغطى بجلد نمر ، وقد أمسك بإحدى يديه بوقا وتحت إبطه ديك أحمر الريش ، وكان يصيح بصوت عال :

يا هو يا حق !

ثم سار بجوار الخيام وعلى مسافة قصيرة منها دق وتداً ثم نفخ فى البوق ثلاث مرات فكان للصوت صدى بعيد تردد فى الوادى الفسيح . ثم شد الديك إلى الوتد ، وتلا بصوت عال ثلاثة أبيات من شعر سعدى . ثم نفخ فى بوقه ثلاث مرات أخرى وخلع جلد النمر وطرحه على الأرض على عشر خطوات من الديك ثم جلس وأخذ يصيح فى صوت رهيب : ياحق

ياهو . ثم جلس على ركبتيه فوق الجلد .

ورأى الجماعة هـذا المنظر وسمعوا الدرويش فوقفوا مشدوهين . فلما خيّم السكون على المكان أخذوا يلحون فى الأسئلة على المساعد . وسألوه عن الدرويش والديك فقص عليهم أمرهما وهو يضحك من جهلهم . إن هذا الحشيش الذى ترونه هو عنصر أساسى فى الإكسير وهو لا يوجد فى غير هذه التلال . ولا يعرفه أحد غير الملا ابراهيم الخليل ، وهو ينمو أثناء صياح الديك فواجب هـذا الدرويش هو أن يأخـذ الديك كل ليلة ثم يتلو المراسيم ويربطه ثم يراقبه طول الليل ليبعد عنه الثعلب وابن آوى . فيتعجب الجماعة ويصيحون فى نفس واحد : الله أكبر والحمد لله .

— ٣ —

والمنظر الثالث فى خيمة الملا ابراهيم الخليل ، وهو يجلس إلى القبلة وفى يده مسبحة بها ألف حبة ، وهو يتمتم بالصلاة وأمامه مساعده وقد وضع يديه على صدره .

ويتحدث اليهم الكيماوى ويعتذر اليهم بما سبقه مساعده اليه ، ويقول إن الإقبال على الفضة شديد وإن الناتج يباع مقدما ، وإنه لم يخبر الملاحيد مساعده بصفقة عقدها مع اليهود لأنه يبغضهم ؛ ولكنه قد وعدهم ووعد الحر دين عليه . وهنا يحاول الملاحيد أن يقاطعه مظهراً التحامل على اليهود ، فيسكته الكيماوى الذى يبدأ فى شرح كيفية استخراج الإكسير مؤكداً لهم أنها مسألة علمية بحتة وليست إلهاما يلهم أو وحياً يوحى ، وأنه بشر ، بشر مثلهم ، لا يبغى غير محبة الأتقياء ويطمح إلى تأدية صالح الأعمال ، فيُرضى ربه أولا ويتعمق فى علم الكيمياء ثانيا .

ويتوسط الملاحيد ، المساعد ، لدى أستاذه بحجة أنهم مسلمون وأنه وعد اليهود ولا يستوى المسلم واليهودى . . ويأبى عليه سيده هذا التعصب ، ويؤكد أنه لا يعدل عن كلمته ولو أخذ مليونين مقابل الخلف ... ولكنه فى نهاية الأمر يرى أمراً وسطا . . ثم ينظر إلى الجماعة ويبدى عدم المبالاة بنقدهم ويقول أعطوه للملاحيد وعدّوه له وعودوا بعد ثلاثين يوما ويستأذنهم كى يصلى صلاة الظهر .

وينصرف الجماعة بعد أن هدأت نفوسهم بالحل السعيد .

— ٤ —

وتنقضى الأيام الثلاثون و يرى الملا ابراهيم الجماعة قادمة من بعيد فى الصباح الباكر ، فيسرع إلى ارتداء ثوب أبيض ثم يشمر أكمامه ... ويخرج من مخيمه وينادى الملاحميد .

و يعد هذا الموقدَ وتشتعل النار و بجانبها أدوات المعمل والبوتقة فوق النار تفور ، والملا ابراهيم منهمك فى العمل بكل وعيه .

وأقبل الجماعة فحيوا بتحية الإسلام . . فتجهّم وجه الملا ابراهيم وصاح : لماذا لماذا ؟ ماذا جاء بكم اليوم ، ياللمصيبة ، أى بلاء يصب فوق رأسى انصبابا ، أجئتم لتفسدوا عملى ، أجئتم لتضيعوا سدى جهدى من أجلكم ، وامصيبتاه ! وامصيبتاه !

ويتساءل الجماعة فى دهشة ماذا حدث فيخبرهم الكيماوى بأنهم جاءوا فى اللحظة التى يتفاعل فيها الجوهر فيخرج الإكسير ، والشرط أن لا يقرب أحد البوتقة قدر فرسخ ، وإلا تحوّل الإكسير إلى غاز متصاعد لا خير فيه ولا جدوى . .

وفى حسرة وخيبة أمل وسوء طالع يقول الجماعة إنهم أتوا فى الموعد المضروب .

فيقول الملا إبراهيم إنى قلت بعد ثلاثين يوما فالموعد غداً وليس اليوم ، ثلاثين يوما كاملة . ويتساءلون . هل من مخرج من هذا المأزق ؟ فيجيب بأن عليهم أن لا يغادروا المكان وأن يصلحوا ما دبرته الصدفة السيئة ، وذلك بأن ينتظروا الفترة التى يعد فيها الإكسير فى البوتقة ؛ على أن لا يتخيلوا القرد أو صورة له أو شبيها به ، وإلا فإن الإكسير الذى بذل شهراً كاملا فى إعداده يصبح فى لمح البصر هباء منثورا . . فأجاب الجماعة بأن الأمر يسير التحقيق . ولكن الطبيب لا يقدر أن يبعد صورة القرد عن مخيلته فيصرح للكيماوى بما يرى فينهره هذا ثم يأمر مساعده بأن يشتد فى نفخ الكور . . وتترا آى صورة القرد أمام الجماعة فيصيحون بما صاح به زميلهم ... و بينما هم فى حيرة وذهول من صورة القرد التى تقفز أمام أعينهم من شدة ما فكروا فى إبعادها عن خواطرهم إذا بالملا ابراهيم يلقى بعض المواد فى البوتقة فتتفجر ويخرج الإكسير فيدوى صوته دويا شديدا . . ويرتمى المساعد إلى

الوراء فزعاً ، أما الملا ابراهيم فيلقى بنفسه على الأرض ويضرب ركبتيه ، ويلتفت إلى الجماعة ويدعو الله أن يخرب بيوتهم ثم ينهال عليهم شتما وسبا ... وأخذت الجماعة تهدئ من ثورته ، وأخيرا يأمرهم بالانصراف إلى القرية القريبة و بأن يحضروا فى اليوم الواحد والثلاثين بعد اليوم و بأنه سيعطيهم فضة بدل ما تبقى من نحاسهم ، وسيعطيهم مقابل الفوائد عن نقدهم المحجوز ؛ فإن قليلا من الفضة لا يضيره شيئا وهو يفيد الجماعة فائدة جمة . . وانصرف إلى مخيمه مطأطئ الرأس يقول لنفسه : نعم اذهبوا وانتظروا دعوتى ولعل الله أن يهيئ فى هذه الفترة الوسيلة للخلاص منكم !

## خاتمـــة

وكما كان فى أول القرن التاسع عشر خير إيران فاتحدت ولاياتها وأتيح لها ملوك أقوياء وأطمأنت نفوس الإيرانيين إلى الدولة الجديدة وأخذوا يعملون على إسعاد البلاد ويسيرونها نحو المجد والخير فإن نهاية هذا القرن كانت وبالا على إيران إذ فقد القاجاريون ما كان لهم من قوة وقدرة على الحكم فعملوا على صيانة مراكزهم أكثر مما عملوا على صيانة البلاد نفسها من المستعمرين ، وتطلع الناس إلى من يخلصهم من الشر الذى يهددهم شر تهديد ، وفى الوقت الذى كانوا ينادون فيه بالحرية وبالمشاركة فى الحكم ، مما أدى إلى منحهم الدستور فى أوائل القرن العشرين ، كانوا يحسون بالحاجة إلى رجل من طراز آخر يحول دون الاستعمار ويدفع الغزاة عن إيران ويعيد إلى البلاد هيبتها ووحدتها . وقد فاض أدب هذه الفترة بهذه المعانى كلها فترى الشيبانى يسخط على القاجاريين[1] وينقم عليهم سياستهم ويتمنى زوال دولتهم ، وأحمد روحى وميرزا أغا خان الكرمانى يطالبان بالإصلاح فى شدة وعنف وقد قتلا عام ١٨٩٦ ، وقد قال الأخير قبيل قتله يستعيذ بالله أن تسقط إيران فى يد الغزاة ، فهو لا يريد أن يرى اليوم الأسود الذى تقع فيه هذه العروس فى يد الشبان الروس أو الإنجليز . وكانت هذه الأفكار مقدمة لأدب القرن العشرين .

---

(١) اختلف الكتاب فى معنى كلمة قاچار وبالتالى فى رسمها وقد آثرنا الرأى القائل باشتقاقها من الصفة التركى قاچمق ومعناه الصدو .